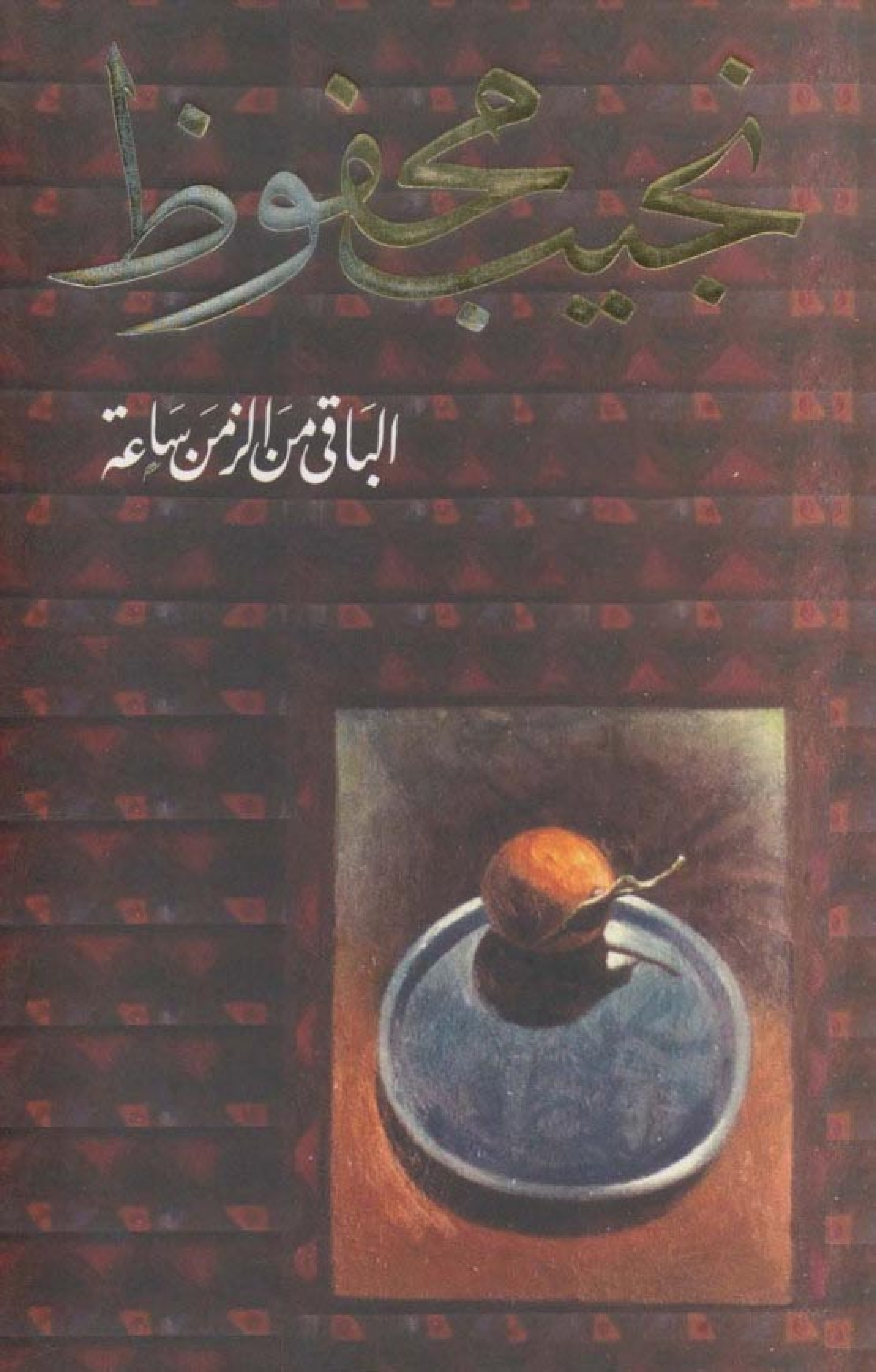
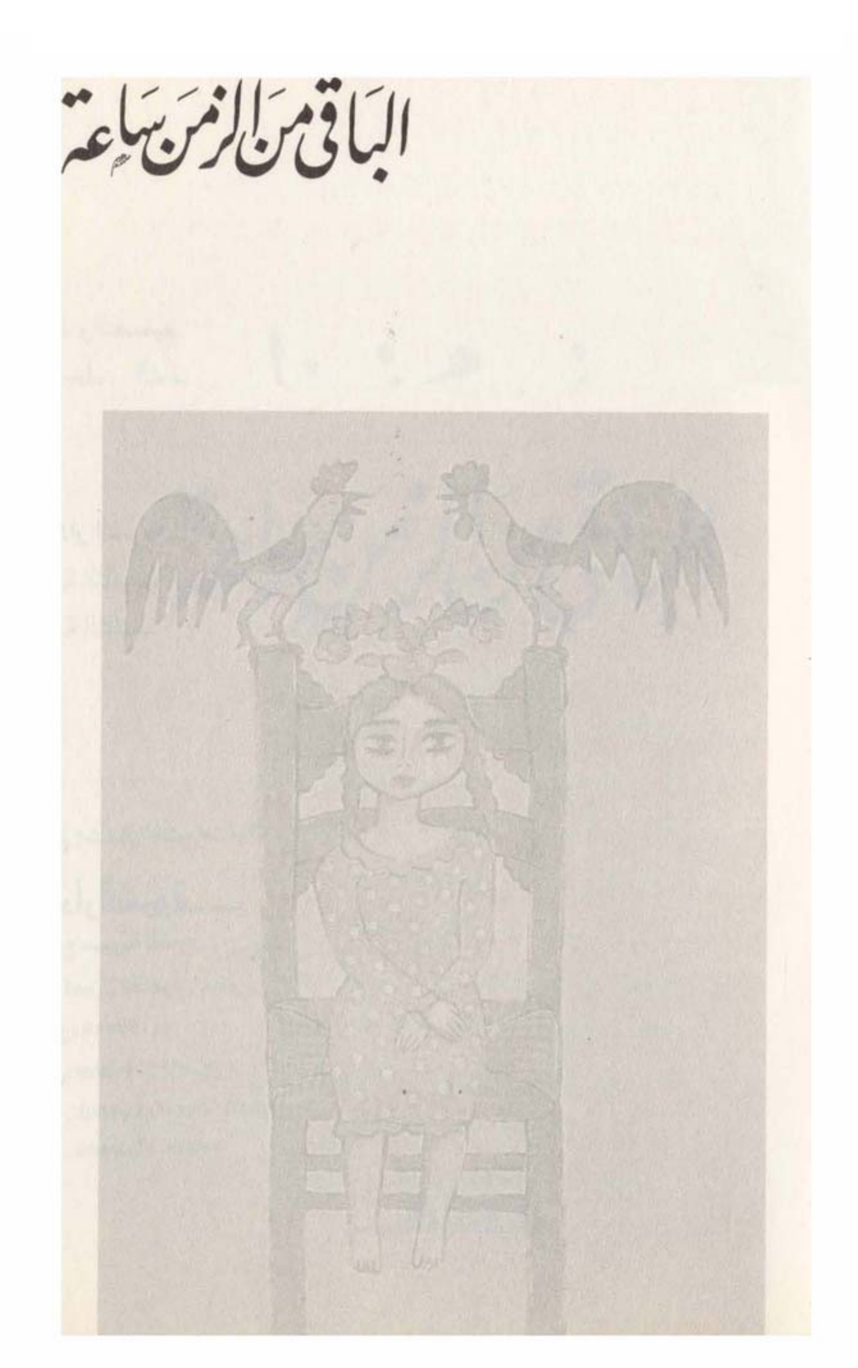

نجيب محفوظ
الباقي من الزمن ساعة

نجيب محفوظ

الباقي من الزمن ساعة

دار الشروق


الباقي من الزمن ساعة

الغلاف والتصميم
للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦
الطبعـة الثانيـــة ٢٠٠٧
الطبعـة الثالثـــة ٢٠٠٩

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

للصورة التذكارية تعود كلما نبض قلبها بالحنين. حجرة المعيشة تزدان جدرانها الخضراء بثلاث لوحات فى أطر مموهة بالذهب. البسملة فى الصدر، الشهادة الابتدائية القديمة بالجناح الأيمن، صورة الرحلة التذكارية بالجناح الأيسر. نسيت أشياء وأشياء، ولكنها لم تنس عام ١٩٣٦ تاريخ الصورة، ففى ذلك التاريخ كتب الخلود للحظة زمانية من تاريخ أسرتها وهى تمرح فوق كليم مفروش فوق الأعشاب بحديقة القناطر الخيرية. فى الوسط جلس حامد برهان رب الأسرة ممدود الساقين، ممتلئا بالعافية، بدينا، وسيم الوجه، ذا سمرة عميقة، وإلى يمينه جلست هى - سنية المهدى - متربعة مغطية حجرها وساقيها بشال عريض متألقة الوجه بملامحها الدقيقة، الصغيرة، أما إلى يساره فجلست كوثر البكرية بجمالها المتواضع ونظرتها الوديعة، يليها محمد فى الجلسة كما يليها فى العمر مثل أبيه فى التكوين والشكل، تليه منيرة بجمالها الفائق ونظرتها المتوهجة. كان الأب فى الخمسين والأم فى الأربعين والإخوة يناهزون البلوغ، وكان الجميع يبتسمون، تحبو فوق وجوههم فرحة الرحلة والسلام، وبين أيديهم تقوم قوارير المياه الغازية وأطباق ورقية ملئت بالسندوتشات والموز والبرتقال، على حين نهضت فى الخلفية هضبة متدرجة معشوشبة وأشجار منثورة. تنطلق فيما وراءها منارات القناطر وجماعات من المتنزهين. تجللتها - الصورة - عذوبة شاملة ولم يظهر فيها أثر للزمن. غير أن الزمن لم يتوقف لحظة واحدة

خارج الصورة، ومن ضمن ما قضى به ألا يبقى فى بيت الأسرة اليوم إلا مالكته سنية المهدى وكبرى ذريتها كوثر. وهو بيت فسيح، مكون من دور واحد يعلو فوق الأرض بدرجات خمس، وحديقته تمتد من جانبه الجنوبى، مساحتها نصف فدان، تغنت عهدا بالازدهار، وكابدت عهودا من الاضمحلال والوحشة. وضخامة البيت والحديقة أثر من آثار حلوان القديمة، الرخيصة النائية، المغموسة فى السكينة والتأمل، التياهة بمياهها المعدنية وحماماتها الكبريتية وحديقتها اليابانية، مصحة الأعصاب المتوترة والمفاصل المتوعكة والصدور المتهرئة والعزلة الغافية.
وجميع الدور بشارع ابن حوقل متشابهة - ما عدا البيت المواجه لبيت الأسرة الذى بيع فى أثناء الحرب العظمى الثانية لتشيد مكانه عمارة جديدة - ولكن بيت المهدية يتميز بطلائه الأخضر، وهو طلاء أغلب حجراته ذوات الأسقف العالية، وهو لون أغطية المقاعد بحجرة المعيشة، والإصرار عليه يعكس ولع المرأة به، ويشير أيضا إلى ولعها بالبيت نفسه الذى وثقت بينهما محبة خلقت للأبناء والأحفاد مشكلة تعذر حلها فى حينها. ومشيد البيت أبوها عبد الله المهدى، وكان فى آخر أطوار حياته فلاحا من الملاك المتوسطين، ولما اجتاحه الروماتيزم نصح بالإقامة فى حلوان مدينة الصحة والجفاف فابتاع أرضا وأقام البيت تاركا أرضه لابنه البكرى، مهاجرا بزوجته ووليدته سنية. ووزع الرجل أملاكه بالتراضى بين ابنه وابنته جاعلا البيت فى حصتها فلعب دورا ذا شأن فى حياتها، إذ نوهت به الخاطبة وهى تزكى سنية عند أم حامد برهان فكان ضمن مغريات اختيارها. لكن سنية كانت على درجة من الوسامة المقبولة، ونالت أيضا الابتدائية، واعترف لها بالذكاء وبأنها كانت خليقة بإتمام تعليمها لولا إصرار الأب على حجبها. وكم حزنت لقراره، وكم سفحت من دموع احتجاجا عليه، ولذلك فرغم مهمتها كربة بيت وأم واظبت على قراءة الصحف المجلات ووسعت مداركها

حتى بلغت درجة من النضج غير معهودة سندت بها حدسها الروحى وأحلامها العجيبة . ولعلها كانت المرأة الوحيدة فى شارع ابن حوقل التى تمسك دفتر حسابات لميزانية الأسرة كما كانت ترسل أخاها بالخطابات المطولة، ربما رغبة فى التعبير وإثباتا لقدرتها عليه . وعلى حبها القديم العميق لزوجها حامد برهان شعرت فى أعماقها بتفوقها عليه، ذكاء وعقلا، فضلا عن أنه لم يحصل إلا على الابتدائية وإن التحق بعد ذلك بمدرسة التلغراف وتخرج فيها . يضاف إلى ذلك أنه لا يعرف عن سلسلته العائلية إلا جدا واحدا ولا يكاد يعرف عنه أكثر من اسمه، أما هى فتعرف كثرة من الجدود وإن لم تشر إليهم إلا إشارات عابرة وفى مناسبات نادرة، وكبر حظ جدها لأبيها من الذكر بسبب نقطة التحول التى أحدثها فى حياته عندما دخل الإسلام بعدما كان قبطيا من صلب أقباط . وفى ذلك قالت سنية ذات يوم لحامد برهان ضاحكة :

ـ تاريخى غير راكد .

وكان حامد برهان ـ مثل زوجه ـ محبا للفخر فجرى وراء المتاح من أسبابه فى حياته البسيطة المتواضعة، ملحا على إثبات رجولته، ودون إغفال للحقيقة الساطعة وهى أنها مالكة البيت، وأنها مدبرته الحكيمة، وأنها مربية الأبناء الرشيدة الواعية، فضلا عن أنها خالقة الجو السعيد الذى نعم به طويلا . ومن آى حبه للفخر أيضا حومانه المصر حول الإنجاز السياسى الوحيد فى حياته، وهو تحريضه على إضراب الموظفين فى مطلع ثورة ١٩١٩، فهو يرويه بتفاصيله كلما سنحت فرصة، علما بأنه الفعل الوحيد فى حياته السياسية التى لم يبق له منها سوى حب قلبى عميق للوفد لا يتجلى بصورة عملية إلا فى الظروف النادرة التى يسمح فيها بإجراء انتخابات حرة بين الأحزاب . وكان زوجا مثاليا فى أكثر من ناحية، فهو مولع بزوجه وأبنائه، وهو فحل فى الرجال، وهو برىء من الأدواء التى تتطفل على ميزانية موظف صغير مثله فلا يسكر ولا يدخن

ولا يفسق بعينيه حتى سهرته يمضيها مع إخوانه فى حجرة الاستقبال شتاء أو الفراندا بقية العام، وهم من أهل حلوان مثله، جعفر إبراهيم ناظر على المعاش، خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى، حسن علما مهندس مبان، راضى أبو العزم مدرس علوم، تنطوى لياليهم فى السمر ولعب الطاولة وحديث السياسة مرددين نغمة واحدة صادرة عن لحن وفدى أصيل فلا نزاع ولا خصام ـ وعرف حامد برهان بالنظافة والأناقة والتدين السمح اليسير الذى يعبق به جو الأسرة. وجبر الله خاطر الوالدين بمحمد ومنيرة فشقا طريقهما فى التعليم بنجاح واعد، خاصة منيرة التى اختصت بالذكاء والجمال معا، إلا أن كوثر تمخضت عن مشكلة مثيرة للقلق، فهى لم تظهر ميلا للتعليم ولا توفيقا فيه. وانجذبت بطبعها نحو التدين وشئون البيت، فاضطرت إلى ملازمة البيت بعد سقوط عامين متتاليين فى المرحلة الثانوية. يومها قالت سنية لحامد:

ـ ست البيت غير مطلوبة فى هذا الزمان.

وتذكر الرجل حظها المتواضع من الجمال فغلبه الأسى، ولكنه قال:

ـ يوجد أيضا الحظ وهو لا قانون له!

وكان للأسرة حياتها الاجتماعية المشتركة، تجد فى الرحلة سرورها، فيوم للحديقة اليابانية، ويوم للقناطر الخيرية، ويوم لدار الآثار، رغم أنها كانت أيام أزمة عالمية طاحنة، غير أن الموظفين ذوى المرتبات الثابتة وجدوا يسرا فى ظل الكساد وهبوط الأسعار، فاقتلعت العاصفة الهوجاء كل قائم ولاذت الأعشاب بالأمان فمرحت وهزجت بالأغانى. وكان حامد برهان يمضى بأسرته دون حجاب، غير مبال بالقيل والقال، فلم يمل إلى التزمت قط، وكانت وراءه امرأة تحسن التربية، وتعطى مثالا فى أداء الفرائض والسلوك الطيب. وتمضى الأيام فلا يتقدم أحد لطلب يد كوثر وهى الوحيدة التى لا غاية لها إلا الزواج.

وتبسط سنية راحتيها بالدعاء عقب كل صلاة، أو يتهلل وجهها بالبشر أحيانا وهى تقول لحامد :

ـ رأيت حلما سيكون له شأن!

أو تكلف أم سيد بقراءة الفنجان وتصغى إلى تأويلاتها الوردية فينتعش حامد بالأمل يهدهد همه المطارد . وما يلبث أن ينسى همه إلى حين وهو يتابع أنباء المظاهرات، والصراع حول دستور ١٩٢٣ ، والسعى نحو إيجاد وحدة قومية لمواجهة الموقف . ويتمخض الجهد والدم عن حدث غير عادى فتعقد معاهدة ١٩٣٦ . ليلتها ثمل حامد برهان بالنصر وقال للسمار :

ـ كلل جهاد الوفد أخيرا بالفوز المبين .

* * *

أجل ، كان ثمة آراء معارضة رددها الأستاذ راضى أبو العزم مدرس العلوم معتذرا بقوله «ناقل الكفر ليس بكافر» ، وكانت وردت قبل ذلك على لسان محمد ومنيرة نقلا عما يسمعان فى المدرسة . غير أنه لم يكن لها أثر يذكر فى الأسرة فسنية وفدية مثل زوجها ومحمد وفدى أيضا ، حتى منيرة تعد وفدية بلا حماس ، أما كوثر فلا تهتم إلا بما يدور فى باطنها . أما فى جلسة السمر فكان الوفد متسلطا دون شريك فتساءل جعفر إبراهيم :

ـ كيف يتوقعون نتيجة أفضل من هذه؟

فقال حسن علما :

ـ المعاهدة ثمرة صراع مرير بين إمبراطورية طاغية من ناحية ، وبلد أعزل من ناحية أخرى ، فهى مشرفة لا ريب فى ذلك . .

فقال حامد برهان :

ـ على من لا يقتنع أن يزحف على العدو بجيشه!

فقال خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدى :

ـ انتهت أيام اللعنات وسوف يحكم الوفد إلى الأبد . .

ولكن بدا أن أيام اللعنات لا تريد أن تنتهى فقد انفجر صراع جديد بين الوفد والملك الجديد، حول المعركة من معركة موجهة نحو الفقر والجهل والمرض إلى المعركة التقليدية حول الدستور والحكم الديمقراطى، وإذا بالوفد يطرد والأقليات تلعب دورا ديمقراطيا زائفا كغطاء متهتك للاستبداد الملكى. تبادل الأصدقاء نظرات أسى مشتعلة بالغضب. أملوا أن يغضب الشعب غضبة من غضباته الماضية ولكنه آثر أن ينتقل من مكانه العريق فوق خشبة المسرح إلى مقاعد المتفرجين، حتى تساءل حامد برهان :

ـ من أين جاءنا هذا الحظ الأسود؟!

واسترقت سنية نظرة إلى كوثر، وقالت لنفسها :

ـ مثل حظك تماما يا بنتى!

واكفهر جو العالم كله وتطاير منه الشرر، ثم انحسر قناعه الأصفر عن حرب عالمية جديدة. وأكثر من صوت قال :

ـ إيطاليا فى ليبيا على بعد شبر منا!

وكان محمد قد التحق بكلية الحقوق. ومنيرة على وشك الالتحاق بالآداب. أما كوثر فما زالت تنتظر. ومحمد ـ مثل أبيه ـ انصهر بهزيمة الوفد وأنباء المعارك، وجذبت نظره ذات يوم لافتة مثبتة على قضبان شرفة شقة بشارع سعفان مسجل عليها بالخط الفارسى «الإخوان المسلمون» فدعاه حب الاستطلاع والتوتر إلى اقتحام الشقة. ومضى يختلف إليها من حين إلى حين وينوه بما يلقى عليه فيها بين أسرته، حتى قال له حامد برهان :

ـ حسبك، إنى غير مرتاح لذلك . .

فدافع الشاب عن وجهة نظره دفاعا بريئا، ولكن أباه قال :

ـ أنت وفدى، وأى تجمع آخر ما هو إلا منافس للوفد .

فقال محمد بإصرار :

ـ إنها مفتوحة للجميع .

ولم يطرأ عليه فى تلك الفترة من تغيير إلا أن أضاف إلى مجال اطلاعه بعض الكتب الدينية، على أن كوثر استغرقتها العبادة أكثر منه وإن عكست عيناها الوديعتان نظرة أسى دائم. وضاعف من حرج الأسرة أن منيرة ـ وهى تشرئب للجامعة ـ تقدم لطلب يدها مدير عام بالسكة الحديد فى الخامسة والأربعين من عمره. لا شك فى أن «درجته» فتنت حامد برهان، ولكنه ـ مثل سنية ـ توجع لحال كوثر. غير أنه لم يكن بد من عرض الموضوع على منيرة التى أدهشتهم بقولها الحاسم :

ـ لا أوافق . .

فقال لها محمد :

ـ يستحسن أن يسبق أى قرار بالتفكير المناسب .

فقالت بصراحة :

ـ لا داعى لذلك على الإطلاق .

وارتاح الوالدان فى أعماقهما وإن تظاهرا بغير ذلك. ولم يكن القهر يلعب دورا فى الأسرة، وكان الأبناء يحظون بنعمة غير معهودة من الحرية والصراحة. على أن منيرة لم ترفض الرجل لفارق السن فقط، فالحقيقة أنها كانت واقعة في حب. لم يفطن أحد إلى حبها، ولا أمها التى ترى بروحها أحيانا بالإضافة إلى عينيها، وكان حبها مشكلة. أحبت شابا من حلوان تبين لها أنها تكبره بسبعة أعوام! كان طالبا بالمرحلة الثانوية، كثير السقوط ولكنه ذو مظهر خادع. رأته أول ما رأته فى الحديقة اليابانية فاتسعت عيناه مرسلة دهشة ذاهلة باسمة تحية للحسن

الرائق، وجلس قبالتها فى القطار أو لعله تعمد الجلوس قبالتها وراح يسترق النظر طيلة الطريق إلى القاهرة. كان ذا مظهر يكبر سنه بكثير، مترامى الأبعاد مبادرا للرجولة قبل أوانها فظنته موظفا أو طالبا فى القمة، وكان إلى ذلك فحل الملامح والصوت. وراح يتابعها بإصرار وشغف حتى غزاها بلطف وثبات. وجد قلبا يخفق بنظرة متوثبة، متعطشة لأول قطرة ماء كى تتفتح أكمامها وتنبثق ألوانها الضاحكة. هكذا تسلط على فؤادها فاستسلمت للنداء المطرب حالمة بسعادة مشرقة. وعند لحظة فريدة يتصارع فيها الحياء والمغامرة ردت آخر تحياته أمام تمثال بوذا الغافى فى سلام بالحديقة اليابانية، فقال متنهدا:

ـ أخيرا!.. سامحك الله..

وفى ارتباكها سألته متلعثمة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بهدوء مغتصب:

ـ ليس عندى أكثر مما يدل عليه حالى.

فعضت على شفتيها لتئد ابتسامة خائنة، فقال برقة:

ـ ليس وراء الحب شىء..

قالت لنفسها: ما أصدقه! وتلاقيا مرات فى الجنفواز على مبعدة يسيرة من الجامعة ليزدادا ببعضهما تعارفا. كان ثمة تشابه بين أسرتيهما فأبوه ناظر مدرسة ابتدائى، له أخت متزوجة وأخ ضابط بالجيش، اسمه سليمان بهجت. ولما عالنها بسنه وصفه المدرسى تلقت لطمة مباغتة لم تتوقعها. كانت تشارف مرحلتها الجامعية بقسم اللغة الإنجليزية، وربما توظفت وهو يلتحق بالجامعة فأى مهزلة وأى خدعة. اضطرب ميزان عقلها ولكن قلبها صمد صمود العاشقين، طرحا العواقب جانبا. ولاحظ سليمان وجومها ولم تغب عنه أسبابه، فقال:

ـ فى الحب لا أهمية للمشكلات السطحية .

فتساءلت بحيرة :

ـ أهى سطحية حقًّا؟

ـ بلا شك ، علينا أن نصر على حبنا حتى نتزوج .

فقالت بسرور خفى :

ـ إنك جاد ولى فيك كل الثقة ، ولكنى أسألك مهلة للتفكير لصالح كلينا . .

فقال بيقين :

ـ إنى أعرف صالحى تماما (ثم ضاحكا) ولن أسمح لك بالتراجع . .

ولم تجد فى أسرتها من تفضى إليه بسرها سوى أمها . اقتحمت غرفتها الخضراء عقب صلاة العصر رادِة الباب وراءها وجلست قائلة :

ـ إليك حكايتى يا ماما . .

لما أدركت أنها حكاية خطوبة نور قلبها بالسرور ، ولكنه سرعان ما انطفأ لدى طرح المشكلة . وتفرست فى وجهها فاستشفت ميلها الدفين وراء قناع الحيرة فأدركها الجزع . قالت لنفسها : إن حظ كوثر سيئ ، أما جوهرة الأسرة فلا يجوز أن يسوء لها حظ . قالت بثبات :

ـ مشروع فاشل ولا خير فيه .

فرمقتها منيرة بنظرة كئيبة فواصلت :

ـ الرجل الأكبر فى السن مقبول ألف مرة أكثر من المرأة الكبرى ، حذار يا منيرة ، ما هو إلا عبث صبى لا يوثق به وأنت رشيدة مثقفة . .

فلاذت بالصمت الذى أدركت الأم معناه ، فقالت بقلق :

ـ الناس يحبون ليسعدوا لا ليجعلوا من حياتهم نادرة يتندر بها ، لن

يمنعك أحد مما تريدين، أنت حرة تماما فى اتخاذ قرارك، ولكنى أحذرك، فالمرأة تمضى إلى الشيخوخة أسرع من الرجل . .

فتمتمت بغموض :

ـ أشكرك يا ماما . .

فقالت برجاء :

ـ لا داعى للعجلة، فكرى على مهل، دعى الأمر معلقا حتى يئين أوان الزواج، ثم انظرى ماذا يبقى منه .

فقالت منيرة وهى مستغرقة بالحيرة :

ـ حل موفق يا ماما . .

ـ عظيم، وليكن الأمر سرا حرصا على الكرامة . .

ولكنها لم تعتد أن تخفى عن حامد برهان أمرا ذا بال فأشركته فى همها قبل انتقاله إلى مجلس السمار . وفاق تأثره بالسر تأثرها إذ كان عاطفيا أكثر منها أو كان دونها فى ضبط النفس، قال بنبرة المتشكى :

ـ أى حظ يا بنتى! إنك درة التاج فلم تبتلين بهذه التجربة؟

وتفكر مليا ،ثم قال :

ـ إنه مشروع فاشل ،ولكنه خليق بأن يقوم عثرة فى سبيل من يطلب يدها . .

ولم تر سنية حلما ذا معنى، وضربت تأويلات أم سيد للفنجان فى آفاق بعيدة عن الموضوع . أما سليمان بهجت فقد عدل عن رغبته الملحة فى إعلان الخطوبة، قانعا بعلاقة أقرب إلى الصداقة مورست فى مودة وتحفظ وصينت بالصبر الطويل . على أن سرا بهذه الخطورة لا يمكن أن يبقى سرا طويلا فما دام توجد رائحة نفاذة وجو ذو قابلية لسريان الرائحة فلا بد للرائحة من أن تنتشر . انكشف فى بيت سليمان بهجت، وقال له أخوه الضابط :

ـ أحسنت الاختيار .

وكثرة من زميلات كوثر بالكلية عرفنه ، وزحف أخيرا على شارع ابن حوقل فنوقش فى مجلس السمار ، وبذلك عرف القاصى والدانى أن كريمة حامد برهان الجميلة «محجوزة» فلم يتقدم أحد ليخطبها ، مثلها مثل أختها كوثر التى طال بها الانتظار وتقدم بها العمر . وكانت أيام حرب وبلاء ، واحتلت الوفيات الصفحات الأولى من الصحف ولكن على نطاق العالم والتهم الخراب العواصم الزاهرة ودنا الخطر من مصر حتى ترددت أنفاسه فى القاهرة والإسكندرية ، فقال حامد برهان :

ـ من راقب بلوى العالم هانت عليه بلواه . .

واختل ميزان المعيشة فتوارت الأسعار القديمة إلى الأبد وانهمرت الثروات على أناس فلم يبق فى القعر إلا الموظفون ، فتساءلت سنية :

ـ ما جدوى إمساك دفتر لميزانية وهمية؟!

ولولا عودة الوفد للحكم عقب أزمة خطيرة وتقريره علاوة الغلاء لهلك الموظفون . ولم يزعزع الحدث إيمان حامد برهان بوفديته ، بل رقص السمار فرحا وشماتة بالملك . وقالت منيرة :

ـ إنه شىء بشع لا يصدق .

وقال محمد لأبيه :

ـ ما أفظع ما يقال!

فقال حامد برهان بثقة :

ـ كل قول جدير أن يتحطم على صخرة صلدة هى وطنية مصطفى النحاس .

فهزت سنية رأسها باسمة وتمتمت :

ـ نطقت بالحق .

وتمضى الأحداث ، ويميل مؤشر النصر إلى الناحية الأخرى ، ويقال

الوفد كالعادة من الحكم، وبعد عامين يحال حامد برهان إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، شد ما انقبض صدره حتى ساوره شعور بأنه يموت قبل الموت. لدى رجوعه إلى حلوان نازعا معطف الوظيفة لأول مرة اجتاحته كآبة ثقيلة، وداخله إحساس بالخجل كأنما ارتكب إثما. قال لنفسه:

ـ ما زلت فى تمام الصحة والعافية.

ورسم لنفسه ـ وهو قابع فى قطار حلوان ـ خطة يتحدى بها قرار الحكومة. أن يستيقظ فى ميعاده المبكر، أن يتمشى ما بين الصحراء والحديقة اليابانية كل صباح مغترفا من هواء حلوان الجاف، أن يواظب على الارتواء من المياه المعدنية، أن يعنى بحديقة البيت ما وسعته طاقته المالية المحدودة. وتلقته سنية باسمة، دعت له بطول العمر، مطاردة أفكارا كئيبة تطن فى باطنها كالذباب. عطفت عليه، رأت وجومه وراء ضحكته المفتعلة، قاسمته الانفعال بالزمن والخوف من المجهول، بالإضافة إلى همومها كربة بيت تفعل المستحيل للاحتفاظ بالحد الأدنى فى مواجهة حياة يشتد عسرها فى بطء وثبات. وحمدت الله على الفرج المنتظر بتخرج محمد ثم منيرة، قالت فى لحظة تأمل:

ـ أشعلوا الحرب وذهبوا وعلينا أن ندفع الثمن..

واستوعب الغذاء والكساء كل شىء ولكن ألا يحتاج هذا البيت الكبير إلى ترميم وطلاء؟ وهذه الحديقة التى عقمت أشجارها الباقية، وذبلت شجيرات أزهارها، وشغلت الأرض الرملية أكثر سطحها ألا تحتاج إلى بعث؟ أين هى من ذلك كله؟! وهى حتى متى تحمل أعباء البيت ولا معين لها إلا فتاة منكسرة القلب وخادم تماثلها فى السن ضئيلة المهارة لا تحسن إلا قراءة الفنجان ونادرا ما تصدق لها قراءة؟ ولكن الهموم تتداوى بالهموم أحيانا، فقد اقتحم البيت هم فى صورة فرح باسم. أجل. أخيرا جاء رجل يطلب يد كوثر! كان خليل الدرس ـ

أحد السمار ـ هو الخاطب! وكان العريس الوجيه نعمان الرشيدى الذى يعمل الرجل وكيلا لدائرته. قال خليل الدرس لمحمد برهان:

ـ رجل ولا كل الرجال.

ثم مبادرا قبل أن تلعب الآمال بقلب حامد:

ـ حقّا لم يتعلم ولكن ما حاجته إلى التعليم؟ وهو فى الستين ولكنه يحظى بصحة ابن الثلاثين، له أبناء ثلاثة ولكنهم موظفون ومتزوجون، يملك أرضا وعمارات وأموالا سائلة، يقيم فى فيللا أنيقة بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ولما ماتت زوجه منذ عام غشيته وحدة لم يألفها فضاق بها وغمرته كآبة ثقيلة حتى اقترحت عليه فكرة الزواج فرحب بها بحماس فاق تقديرى بكثير فطلبت إلى زوجتى أن تدعو ست سنية وكوثر لزيارة، ودعوته من ناحيتى، ويسرت له رؤيتها فى الحضور والانصراف فسُرَّ جدّا وأمرنى أن أتم السعى، وهأنذا أفى بما تعهدت به..

هكذا ذابت هموم الحياة اليومية واستأثر المشروع الجديد بالأفئدة. أسكتوا الراديو فى حجرة المعيشة، وأفضى حامد برهان بما لديه، ثم قال:

ـ هذا هو العريس فما الرأى؟

همت كوثر بالانسحاب، ولكن حامد برهان أمسك بساعدها وجذبها إلى جانبه بحنان قائلا:

ـ هنا مكانك.

فقال محمد ضاحكا:

ـ من حسن الحظ أن الحكومة لا تتدخل فى هذه الشئون.

وساءلت سنية نفسها: لم يتعثر حظ ابنتيها فلا يعرف الطريق المألوف؟ وقالت:

ـ لنترك الأمر لصاحبة الشأن . .

فقال حامد برهان :

ـ طبعا . . طبعا . . ولكن لا بأس من إبداء الرأى مساعدة لها ، الرجل ثرى ، والمال زينة الحياة الدنيا !

وهمَّ محمد بتكملة الآية ولكنه عدل عن ذلك . كان ينظر إلى بقاء أخته فى البيت الكبير بلا زواج ولا علم ولا عمل بقلق شديد . قال :

ـ فرصة لا يصح الاستهانة بها .

فقالت منيرة :

ـ أوافق على رأى كوثر دون قيد أو شرط . .

فقال لها أبوها :

ـ لم تقولى شيئا . .

فقالت بإصرار :

ـ قلت كل شىء .

ونظر حامد برهان نحو سنية وهى متربعة فوق الكنبة ، فتمتمت :

ـ رجل مقبول من بعض النواحى ، ولكنى تمنيت لها حظا أفضل . .

وهربت بوجهها من نظرتهم فاستقرت عيناها على الصورة التذكارية . وقالت كوثر لنفسها إنهم يميلون للموافقة . وهى أيضا مالت إليها منذ اللحظة الأولى . فهذا الرجل هو أول رجل يتقدم . وهى تغوص فى السادسة والعشرين تكتنفها أحوال تدعو إلى اليأس . وهى تثير العطف حتى كرهته . وباتت تخجل من لقاء الزائرات . ولما لمسها أبوها برقة متسائلا :

ـ وأنت يا كوثر ؟

أحنت رأسها وغمغمت بصوت لم يسمع :

ـ موافقة .

وانتهت الجلسة بسلام، ولكن ثمة شعور بالذنب طاردهم قاوموه بالشعارات الطيبة. وعندما خلا حامد برهان بسنية عقب انصراف السمار قال:

ـ بارك الجميع قرارنا . .

نظرت إليه فهالها أن ترى عينيه دامعتين. لم تدهش لما تعلمه من سخاء عينيه إذا مس وتر حميم فى قلبه، أما هى فتبكى فى الداخل. وسألته بأسى:

ـ لم تبكى يا رجل؟

فتنهد قائلا:

ـ من العجز وسوء الحظ .

عنى عجزه المالى وسوء حظ ابنته. وهو كان يرى أكثر مما يتصور من حوله. لاحظ بقلب متغضن انزواء كوثر، أسى نظرتها، معاناتها للمراهقة، إغراقها اليائس فى العبادة، تطوعها لخدمة إخوتها فى استسلام كامل، فدفعه ذلك كله إلى مواجهة عجزه. ماذا فعل من أجلها؟ ماذا يملك من المغريات؟ وكم قسا عليها أيام الدراسة مصرا على تحميلها ما يفوق طاقتها رغم أنه كان مثلها فى معاناة التعليم، وإلا لشق لنفسه طريقا آخر أبعث للآمال له ولذريته. وسأل زوجته ومرشدته:

ـ ما العمل الآن؟

استخرجت من الجملة القصيرة مضمونها الخفى فقالت:

ـ عندى مجوهرات لا بأس بها . .

فقال بذل:

ـ أحاول أن أقترض أيضا؟

فقالت بضيق:

ـ لن تجد ضامنا، ولا ضرورة لذلك.

على أن السيد الوجيه نعمان الرشيدى جعل من العسر يسرا. نشط نشاطا كبيرا فأهدى أثاث فيللته إلى أبنائه، وأعاد تأثيثها على أحدث طراز، وفى مقابل ذلك اتفق على صداق ومؤخر صداق رمزيين. وارتاحت الأسرة فى الأعماق لذلك، ولكن تجلى طفحه فى الوجوه فى صورة كبرياء جريح. لذلك غالت الأم فى تزويد كريمتها بالثياب أشكالا وألوانا وأغدقت عليها هدايا ثمينة: أساور ذهبية وقرطا ماسيا وساعة أثرية. وبدا الوجيه حريصا على الوقت فتحدد يوم لكتب الكتاب فى البيت الكبير شهده الأصدقاء ولم يحضره أحد من أبناء الوجيه معلنين بذلك مقاطعتهم التى تواصلت إلى الأبد. ومضى الوجيه بعروسه فى سيارته المرسيدس البيضاء مودعا ببسمات متلألئة بالدموع كرمز للفرح والأسى معا. وعقب الزيارة الأولى التى قامت بها الأسرة لفيللا شارع الزقازيق، قال حامد برهان:

ـ كوثر سعيدة والحمد لله.

كانت سعيدة حقًا، وسرعان ما بادلت زوجها حبا بحب. كان حبا حييا هادئا، ولكن بالقياس إليها كان الحب كله. وما لبثت أن بشرتهم بمقدم مخلوق مجهول من الغيب فانغرست البشاشة فى قلب سنية المهدى طارحة ورودا وأزهارا. وأضفت التسريحة الجديدة على وجه كوثر أنوثة. وأكسبها الزواق ملاحة، وأسبغت عليها الثياب الفاخرة جلالا وسؤددا وإن لم تهمل يوما سجادة الصلاة. وأخفت عن أمها همومًا صغيرة تسللت إلى وجدانها من جراء محاولات مستميتة بذلها نعمان الرشيدى ليقنعها باحتساء القليل من الويسكى، لاجئا إلى إصدار فتاوى شخصية لا أساس لها بأن الشرب الشرعى حلال، حتى يئس فقنع بالمتاح. وما إن رفع حامد برهان رأسه عن همّ كوثر حتى ركز عينيه على العمارة الجديدة التى استوت قائمة فى مواجهة بيته. وبدأ الهدم

ورمى الأساس من سنوات، وتوقف العمل وقتا غير قصير لأسباب مجهولة، ثم استؤنف حتى اكتملت بقاعدتها الواسعة وقامتها المديدة. أسف حامد لذلك غاية الأسف، وتحسر على زوال حديقة البيت الأصلى وأن يقوم مقامها بناء فيحجب ما يحجب من منظر مأنوس ويمنع ما يمنع من هواء طلق. وانقض على العمارة سكان جدد فاق عددهم سكان «ابن حوقل» جميعا، لا يعرف بعضهم بعضا ولا يتحمسون لمعرفة أحد. قال جعفر إبراهيم:

- هذا مصير بيوتنا الكبيرة القديمة..

فتساءل حامد برهان:

- ولكن ما حلوان إذا اغتصب هدوءها الأبدى؟!

وخُيّل إليه أن بوذا سينتبه من تأملاته العميقة محتجا، ثم يرحل وراء الهدوء إلى أعماق الصحراء.

ولم تكن العمارة بالهمّ الوحيد الذى طرأ فقد تدفق طوفان فى ميدان السياسة دافعا بين يديه مظاهرات من الطلبة والعمال مطالبين باستقلال حقيقى يكافئ ما بذلته مصر من تضحيات وخدمات فى أثناء الحرب. وكالعادة غلبت السياسة على السمر وانهمك حامد برهان الوفدى العريق فى همومها، وقال:

- لو بقى مصطفى النحاس فى الحكم لطالب الإنجليز بجزاء تأييده لهم فى وقت الهزيمة.

غير أن همومه لم تحل بينه وبين رؤية ساكنة جديدة فى الدور الرابع من العمارة الجديدة. كان يتمشى فى حديقته الموحشة مصارعا الفراغ الجديد المهيمن على حياته فحانت منه التفاتة فرآها تتمشى فى مطلع خريف. لعلها تماثل سنية فى العمر - فى الخمسين - ولكنها رشيقة مزخرفة ذات شعر ذهبى وعرق أجنبى. استقبل من ناحيتها تيارا مثيرا

هو الذى لم يهتم بالنظر إلى امرأة منذ تزوج من سنية المهدى. عاش حياته زوجا مثاليا لا يزهد ولا يتغير ولا يحلم حتى لفت الأنظار إليه بطبعه العجيب. ولا يذكر أحد من معارفه أنه سمعه يحدّث عن عالم المرأة، حتى قال صاحبه راضى أبو العزم مدرس العلوم:

ـ حامد متخصص فى زوجته.

وبدا أن المرأة هيجت اهتمامات الجيران بفرنجيتها وعصريتها وملابسها فانتشر من نافورتها الشادية رذاذ المعلومات. قيل إن أمها إفرنجية ـ وإن لم يحدد الجنس ـ وإنها أرملة للمدعو حسن كمال الذى كان مدرسا بمدرسة الفنون وعضو بعثة فى الخارج. وقيل إن لها ابنة وحيدة مترجمة بوزارة الخارجية، ثم صحح الخبر فيما بعد فقيل إنها ابنة زوجها من زوجة سابقة متوفية، وإن المرأة تبنتها لعقمها فعد ذلك حسنة تحسب لها. ثم عرف أن اسم المرأة ـ بعد إسلامها ـ ميرفت وأن البنت اسمها ألفت. وكانت المرأة تسلى وحدتها بالمشى فى شوارع حلوان وزيارة الحديقة اليابانية، تمضى رشيقة براقة مثيرة داعية ـ دون مبالاة ـ لشتى الظنون، باسمة متحدية، بخلاف ألفت المواظبة على عملها والمتسمة بالجدية والحياد أيضا. وبالقياس إلى حامد برهان لم تكن ميرفت مجرد امرأة مثيرة تسعى ولكنها كانت غزوة اقتحمت حصنه المنيع، ونارا أشعلت هشيم خياله، وسيلا جرف سده العالى. وعجب الرجل لحاله مغمغما:

ـ أعوذ بالله.

وذكره ذلك بما جرى فى الحرم الجامعى وفوق كوبرى عباس من مظاهرات وسفك دماء، فقال:

ـ هذا يثبت أن الأرض تدور على قرن ثور!

وعم البلاء عندما وهبته المرأة انتباهها ولم يعد ثمة شك فى أنها

تشجعه! وذات يوم تلاقت أعينهما فى نظرة آسرة فابتسمت إليه. تناثرت إرادته وانفجرت غرائزه، وتمخض جسده البدين عن جنون أحمر. تناسى واقعه وسنية وكوثر ومحمد ومنيرة فمضى وراءها إلى الحديقة اليابانية، ولم يكن يدرى شيئا عن الغزل ولا حتى عما يجب أن يقال فسلم نفسه فى براءة طفل، وتواعدا على اللقاء فى القاهرة مختارا اليوم الذى يتسلم فيه معاشه على سبيل الحذر. وبهذه العلاقة استوى فى مقام الحيرة. أدرك من أول وهلة أن «مصروفه» لا يسمح له بعلاقة غير مشروعة، فضلا عن أنهما لا يجدان عشا مناسبا. وقالت له:

ـ إنى سيدة محترمة!

فقال ـ وكانا يجلسان فى محل باليرمو بالهرم ـ بصراحة مؤثرة:

ـ وأنا كما ترين فقير..

فقالت بجرأة غريبة:

ـ لدى إيراد خاص لا بأس به.

فقال بسذاجة:

ـ ممكن أحتفظ بنصف معاشى إذا توظف ابنى وابنتى فى القريب العاجل.

هكذا انحرف الحديث إلى «الشرع» وقذف بحامد برهان إلى حياة جديدة لم تجر له فى خاطر ورجع إلى حلوان وهو يقول لنفسه:

ـ أدرك الآن معنى أن يغلب إنسان على أمره!

أى قنبلة انفجرت فى صدر سنية المهدى والزوج المستأنس المحب البكاء يقف بين يديها حانى الظهر، مغروز العينين فى البساط القديم المنجرد وهو يقول:

ـ إنه أمر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله..

استيقظت من كهفها على صدمة كهربائية مزلزلة.

ـ ماذا يقول الرجل الممسوس؟

ـ تزوجت ، إنها محنة ، ولكنك ستظلين الزوجة والأم!

إذن فأى شىء يمكن أن يحدث .

ـ إنك مجنونَ ولا شك!

وكعادته عند غلبة الانفعال دمعت عيناه . استمسكت هى بمظهرها الرزين المجلل بذهول غامض . كرهت دموعه واحتقرتها وتردت بيقين فى هاوية . وثبت بها دفعة مباغتة لصفعه ولكنها لم تفعل . كظمت دوامتها بسلك صلب . أمرت قلبها بأن ينكسر وحده وفى صمت جليل وبأن يتشرب أشنع الآلام كما لو كانت ماء عذبا . قال بصوت رجل آخر :

ـ لن يفصل بيننا شىء .

عند ذاك هتفت به :

ـ لا ترنى وجهك أبدا .

وتلقى محمد ومنيرة الخبر ، فصاح محمد :

ـ يا خبر أسود!

أما منيرة فلم تنبس ثم أفحمت فى البكاء . وقف قلباهما وراء أمهما وأدانا أباهما دون قيد أو شرط .

وقالت منيرة لمحمد وهما فى الفراندا وحيدين :

ـ أنا لا أفهم شيئا . .

فقال بامتعاض شديد :

ـ إنها مأساة ألقيت على بابا لتلقى بعد ذلك على ماما ثم تطوقنا جميعا .

ودفع الزواج الجديد الزوجين إلى ضربين من الجنون . جنون صمت

وكبرياء غزا الأم. صممت على ممارسة حياتها اليومية وكأنها لاتبالى بيد أنها كانت مشتعلة القلب والعقل طيلة الوقت فراحت ترى وراء الأحداث اليومية ـ المسموعة والمقروءة ـ شبح مأساة كونية غامضة، وأن حماقة الإنسان داء متأصل لن يشفى منه إلا بمتناقضات شتى كالعنف والحكمة والرحمة! وبذهاب «العجوز المتصابى» أتيح لها فراغ لم تعهده من قبل فتعلق اهتمامها بالبيت، وشعرت أكثر من أى وقت مضى بأنه ليس على ما يرام. إنه يطعن فى القدم دون رعاية ولا عناية. ها هى ذى تتجول بين الحجرات والحديقة، تنظر وتتفحص، بهتت الألوان، تقشرت الأركان، تشقق خشب الأرضية وفقد مرونته، ذبلت الحديقة وملأتها الوحشة وتراكمت فى أجزاء منها الأوراق الجافة، وقالت:

ـ العين بصيرة واليد قصيرة.

وتابعها محمد مرة بعينيه، ثم همس فى أذن منيرة:

ـ إنى قلق.

فهمست له بدورها:

ـ ليتها تروح عن نفسها ولو بالدموع؟

أما حامد برهان فلم يبق له إلا أن يغمض عينيه ويصم أذنيه حيال الماضى وأن يرمى بنفسه فى بحر العسل. انقلب إلى مراهق ذى رأس أبيض وجسم ملىء بعنفوان لا يدرى من أين جاء. ووجد فى ميرفت امرأة فائقة المقدرة متقنة لفنون من العشق لم يعرفها من قبل. وبادلته هياما بهيام، ولولا دعمها المالى لحياتهما المشتركة ما أمكن لها دوام. وبمضى الأيام انتقل مجلس السمار إلى الشقة الجديدة، وأضافوا إلى أحاديثهم المألوفة موضوعات جديدة عن وصفات ناجعة لتجديد الشباب. وفى أثناء ذلك ولد رشاد بن كوثر، وتخرج محمد، ثم لحقت به منيرة، وهى أحداث خليقة ببعث السرور الشامل، ولكنها لم تحظ إلا

بفرحات سريعة الزوال كانفراج السحب عن شروق الشمس دقائق فى يوم مطير عاصف. وزاد من تجهم الجو اشتعال حرب فلسطين فعلا صوت المعركة المبهم المشحون بالقلق على معارك حامد برهان الجنسية الظافرة وشد سنية المهدى من حال سيئة إلى أخرى كمن يفلت من قبضة صداع ليقع فريسة لروماتيزم، على حين تابعت منيرة الأنباء من موقع وظيفتها الجديدة كمدرسة للغة الإنجليزية بمدرسة البنات بالعباسية، أما محمد فوجد عملا فى مكتب الأستاذ عبد القادر قدرى المحامى الوفدى المعروف، وكان موصولا بصداقته من عهد وفديته الخالصة فلم ينقطع عنه بعد أن مازجت وفديته «إخوانية» متصاعدة. وبذل محمد جهدا صادقا فى عمله حاز به ثقة أستاذه. غير أن الحرب انتهت بهزيمة العرب، ومقتل النقراشى، وإعلان حرب داخلية لا هوادة فيها ضد الإخوان، فقبض على محمد فيمن قبض عليهم ضمن شعبة حلوان. وهز النبأ الأسرة هزة فاقت أحزانها الخاصة والعامة. واستقبل البيت القديم بحلوان الوجيه نعمان الرشيدى وكوثر، بل جاء حامد برهان نفسه. وتجاهلت سنية زوجها تماما فتجنب إزعاجها ومضى يوجه حديثه إلى نعمان أو منيرة. ولم يكن دون سنية قلقا، حتى قال الوجيه نعمان:

ـ مؤكد أنه لم يتورط فى جريمة فلا خوف عليه..

فقالت منيرة:

ـ أخشى ألا يفرقوا بين البرىء وغيره فى حومة الانتقام.

فقال حامد برهان:

ـ لم يرتح قلبى قط لانضمامه إلى الإخوان، وكلنا مسلمون والحمد لله..

وشعر نعمان الرشيدى بأنه مطالب بأكثر من الكلام لعلاقته الوثيقة بالمسئولين من جميع الأحزاب، فقال:

ـ سأبذل ما فى وسعى رغم أن الدفاع عن إخوانى فى هذه الظروف تصرف مرعب!

كان حريصا على علاقاته الودية بجميع الأحزاب، لذلك ساءه أن يكون أخو زوجته إخوانيا، فكيف يسعى بنفسه إلى الكشف عن هذه الحقيقة الفاضحة؟! وجعلوا يواسون سنية باعتبارها المحور الأول للحزن، فقالت بأسى:

ـ ثقتى بالله لا تتزعزع.

غير أن الحزن قطع قلبها فساء نومها، وكانت تنام إذا نامت وقلبها مسهد، وتحلم بالعذاب. وجاءها خطاب من أخيها ينعى إليها بكريه الذى استشهد فى الحرب بعد أن ظن أنه مفقود، فسرعان ما سافرت إلى بنى سويف للعزاء. على أنه أفرج عن محمد بعد فترة غير قصيرة فرجع ذات يوم وألقى بنفسه فى حضن أمه. وتظاهر ـ رغم شحوبه وذبوله ـ بالسرور مخفيا عن أمه الأخبار المحزنة. ورجع إلى عمله بمكتب الأستاذ عبد القادر قدرى مصمما على الاجتهاد. ولما سأله الأستاذ:

ـ هل شبعت من الإخوانية؟

أجابه ضاحكا:

ـ العكس هو ما حصل!

فقال الأستاذ عبد القادر:

ـ افهم معنى الوفد قبل فوات الأوان، إنه ليس حزبا ولكنه قاعدة الأساس المتماسك، هو بكل إيجاز «مصر».

فتساءل محمد:

ـ هل ندور على مدى العمر حول الاستقلال والدستور؟!

ـ جدد ما تشاء ولكن فوق القاعدة المتماسكة وإلا وجدت نفسك فى عهد ما قبل الأسر!

ولما انفرد محمد بأخته منيرة قالت له برثاء :

ـ شد ما هزلت!

فقال متجهما :

ـ لن تنزع من روحى آلام الضرب الذى انهمر على جسدى كالمطر!

وأدركت سنية ذلك بحدسها، وبتأويل أحلامها، ولكنها صممت على الصبر مع الحياة الجديدة. لفظت حامد برهان من ضميرها كما يبصق الإنسان حلوى فضح الريق فسادها ولكنه بقى جرحا مفتوحا ينعى الحب والوفاء. وقالت إنها ستنسى تماما وتسلو، بل وتسعد، لو أمكنها ذات يوم أن تعيد إلى البيت شبابه الغض. لديها نصف معاش «الخائن» ومرتب منيرة ومحمد، ولكن الغلاء يمضى فى سبيله فى بطء وثبات، ثم إن لمحمد ومنيرة آمالهما الخاصة! لم يبق لها إلا الحلم. هو الذى يرمم ويطلى ويبيع الأثاث القديم ويشترى أثاثا جديدا، هو الذى يشذب الأعشاب، ويغذى الجذور، ويسمد الأرض، ويغرس أشجار الورد. إنها تحلم وتناجى أرواح الأولياء والجدود. وتقاوم فى مجرى ذلك ذاكرتها التى تخون الإرادة فتقذف بشهاب خاطف لذكرى جميلة ما كان ينبغى أن تبرق فى الأفق وتقول لنفسها :

ـ لا تطمئنى لشىء طيب.

وتغدق على منيرة تساؤلاتها القلقة فتعلم أن بهجت سليمان توظف بشهادة زراعية متوسطة فى وزارة الزراعة وأنهما ما زالا مقيمين على العهد فتغمغم لذاتها :

ـ الأمر لله!

أما محمد فهو آخذ فى استرداد صحته وشق طريقه. لم تعد توجد شعب إخوانية ولكن الدين أصبح على رأس مطالعاته، واكتسب عنه رؤية جديدة مختلفة عن دين أسرته المتسم بالسماحة والبساطة. وقد

استأذن أمه فى زيارة أبيه عقب الإفراج عنه فأمضى ساعة طويلة معه شهدتها ميرفت هانم وآنسة ألفت. رأى ألفت لأول مرة بتمعن وعن قرب فتحرك قلبه البرىء، واصطحبها معه فى عباءة خياله عند انصرافه. ورآها فى القطار، بل وجالسها فيه أحيانا وتبادلا الحديث. وتسلطت بعد ذلك على ذاكرته وخياله. فلزمته فى البيت والمكتب والمحكمة على حين وهبته - فى واقع الحياة - استجابة طيبة. وخفق قلبه بسعادة الحب حتى تساءل بقلق:

- ولكن ماما؟!

وإذا بالحياة العامة تباغته بفرحة غير متوقعة فتستقيل الوزارة ويبشر الأفق بانتخابات حرة. صرخ محمد:

- اللهم لا شماتة!

أما حامد برهان فرقص طربا. والتقى مع محمد فى دائرة انتخابية واحدة فهمس فى أذن ابنه:

- الشكر لله على أنك مازلت فى الأعماق وفديا.

فقال له محمد باسما:

- الإخوان معكم فى هذه الانتخابات.

ورجع الوفد إلى الحكم فصعد حامد برهان إلى العرش من جديد وهو يقول:

- الخلود ممكن فى هذه الحياة.

وأقبلت أيام وردية فآمن الناس بأن أيام المحن قد ولت. وراحت منيرة تفكر فى مستقبلها من موقع حبها العتيد، كما ربط الحب بين محمد وألفت فتعاهدا على الزواج والانتظار مع تأجيل إعلان الخطوبة لفرصة طيبة. ثم تعثرت مفاوضات تعديل المعاهدة وتفشى القلق حتى جلجل صوت مصطفى النحاس بإلغاء المعاهدة. وبلغ الحماس مداه فى

مجلس السمار بشقة ميرفت هانم . وتذكر حامد برهان حماسه يوم عقدت المعاهدة على ضوء حماسه الجديد لإلغائها فقال :

ـ من تكون عروسا فى ١٩٣٦ فكيف تصير فى ١٩٥١ ؟!

فقال خليل الدرس :

ـ إنه زمن سريع وقلب !

فقال حامد برهان :

ـ لا يقدر على إلغائها إلا من قدر على عقدها ، هو الوفد دائما وأبدا . .

وتتابع الفداء والعنف حتى اشتعلت النيران فى جنبات القاهرة . قال حامد برهان لميرفت :

ـ الويل للخونة !

فقالت وهى بعيدة عن مشاركته :

ـ حلوان بمأمن من ذلك .

ووقفت سنية فوق السطح تنظر صوب القاهرة من خلال منظار مكبر ربحه محمد فى صباه فى نصيب سينما أوليمبيا وهى تردد بقلق بالغ :

ـ ارفع يارب غضبك ومقتك عنا . .

ولما اربد وجه القاهرة بالغضب وأنذر بأوخم العواقب مضى محمد إلى وزارة الخارجية فاصطحب ألفت إلى محطة باب اللوق قائلا :

ـ أخاف أن تنقطع المواصلات . .

رجعا قبل أن يقدرا مدى الخطر الحقيقى الزاحف لالتهام صفحة كاملة من تاريخ دام . وهوى رد فعل عنيف كالصاعقة . وقال حامد برهان لسماره :

ـ المجرمون يقهقهون !

غير أن القهقهة انقطعت حال ارتفاع صوت جديد فى الصباح الباكر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . تبادلت الأسرة النظرات حول مائدة الإفطار وتكلم محمد قائلا :

ـ فلنستبشر خيراً فأى شىء خير مما كان .

وتساءلت منيرة :

ـ والإنجليز؟!

فقالت سنية :

ـ أمل مجهول خير من يأس راهن!

وتابع حامد برهان سيل الأخبار المتدفق بذهول . كان ـ كوفدى ـ يشارك فى الأحداث إيجابا أو سلبا عندما كانت الحلبة خالية للوفد وأعدائه ، أما هذه المرة فالقوة الفعالة غريبة وطارئة ومبهمة . ورأى العدو التقليدى ـ الملك ـ يرحل إلى الأبد فلم يدر أيعتبر ذلك نصرا أم هزيمة ، وهيمن عليه فتور فتوجس خيفة غامضة . ولما رأى ميرفت دامعة العين لذهاب الملك تمتم بميكانيكية :

ـ هذا جزاء العبث!

فتساءلت ميرفت :

ـ ألا ترى أن السلطة آلت إلى رجل وضع نفسه فوق القانون؟!

فقال وهو لا يصدق حرفا مما يقول :

ـ إنهم يعدون بتقديس الدستور .

ومثل ميرفت بكت كوثر وهى تستمع إلى نبإ طرد الملك ، واستشهد الوجيه نعمان الرشيدى بالقرآن لأول مرة فى حياته فقال :

ـ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ .

وتحمست منيرة للحركة بلا تحفظ وبتلقائية ، وأيضا متأثرة بحماس

حبيبها سليمان بهجت الذى وضح أن أخاه ضمن الضباط الأحرار .
ولحق بها محمد عندما آمن بأن الحركة «إخوانية» بل قد دعى إلى بعث النشاط من جديد فى شعبة حلوان. ودعا حامد برهان ابنه محمد إلى مقابلة عاجلة وكان على علم بما بينه وبين ألفت، وقال له :

ـ ابعد عن الإخوان، حسبك ما أصابك نتيجة لانضمامك البرىء إليهم . .

فقال محمد بدهشة :

ـ كيف أهجرهم بعد أن توج كفاحهم بالفوز المبين؟

فقال الأب كاظما غيظه :

ـ ما هى إلا حركة بلا جذور شعبية فلا تعرض نفسك لغضب الشعب كما تعرضت سابقا لغضب الحكومة . .

فابتسم محمد ثقة وقال :

ـ الماضى مات قبل أن تمتد يد لقتله . .

واعتبرت الأسرة أن لها فى الحركة الجديدة عضوا، وأنها تتحول به من أسرة مغمورة إلى أسرة حاكمة أو مشاركة فى الحكم، واعتبرت منيرة أن لها عضوين، أخاها وحبيبها، وانشرح صدر سنية وخُيّل إليها أن حلم تجديد البيت سيتحقق فى وقت قريب وأن متاعب المعيشة ستخف يوما بعد يوم، حتى أحزانها الخاصة ستذوب فى النشوة الشاملة. وتطور محمد فى أحاديثه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، فبات يقول سنفعل كذا وكذا، وتمنت ألفت أن يلمع كالآخرين وأن يذلل العقبات المعترضة لزواجها. ودون أن تدرى مضت تهتم بالسياسة وبالدين متخذة من محمد مرجعا ومرشدا، حتى قال محمد لنفسه :

ـ إنها مختلفة تماما عن أمها التافهة .

وذات يوم سأل منيرة :

ـ كيف تتصورين موقف ماما منى إذا كاشفتها بعلاقتى بألفت؟

ففاجأته منيرة قائلة :

ـ أخبرتها رحمة بها!

فهتف :

ـ لكنى لم أشعر بأى تغير من ناحيتها!

ـ ألا تعرف ماما؟!

وكانت سنية قد رأت ألفت مرارا من نافذة حجرة نومها الخضراء. وكالعادة تنبأت بما سيحدث فوطنت النفس على التسليم به. وقالت إن حظها على أى حال أحسن من حظ ملكة مصر الضائعة، وإنه من الحماقة أن تتحدى أحداثا تحمل فوق جبينها طابع القدر. ولكن كيف يستعيد البيت شبابه؟ سيمسى ذلك حلما لا يتحقق إلا بحلم ولا يبقى لها إلا أن تعبد الله. وذات مساء راح حامد برهان يشرح خبايا الموقف السياسى لسماره قائلا :

ـ ما الحركة إلا مؤامرة أمريكية للقضاء على الوفد!

وأراد أن يحلل رؤيته ولكن حماسه فتر فجأة. وصمت. وشحب لونه وتفصد جبينه عرقا رغم برودة الجو. وطرح جسمه البدين على ظهر الفوتيل الكمونى، فسأله حسن علما المهندس بقلق :

ـ مالك؟

حاول أن يبتسم فعجز، خانته قواه، لاح له وجه بوذا، ثم أسبل جفنيه. وحملوه إلى فراشه، استدعت ميرفت طبيب الضاحية فشخص الحال بأنه هبوط فى القلب وأمره بالراحة التامة. انزعج الأهل والسمار، وذهبوا فى تفسير الحال مذاهب شتى، قالوا إنها الانفعال السياسى المستمر، وقالوا إنه الزواج دون غيره، حتى قال جعفر إبراهيم :

- إنها مشيئة الله .

ولما عرف الخبر خارج شقة ميرفت عاده محمد ومنيرة وكوثر ونعمان الرشيدى، وعادته أيضا سنية المهدى خاصة وأنه لم ينتزع من نفسها تماما رغم كل شىء. أجل ضاق صدرها لدى اقتحامها لحصن ضرتها ولكنها صافحت لأول مرة ميرفت وألفت، وانحنت فوقه متمتمة :

- شد حيلك!

ابتسم معلنا امتنانه، وتأزم الجو بتوتر خفى، وتضاربت شعارات المجاملة مع الانفعالات العدوانية الباطنة. وعلمت ميرفت بأنه لن يخلو يوم من أيامها من التنغيص لرؤية الوجوه التى لا تطيقها. وطال الرقاد، وعرف أنه سيطول أكثر، بل عرف أن حامد برهان لن يرجع إلى سابق عهده أبدا. وأصبح تمريضه عبئا على امرأة صاحبة مزاج كميرفت. ولم يفقد المرض حامد برهان حساسيته فسرعان ما شعر بأنه غريب فى مرقده، وضاق بموقعه. ووجد فى قهر المرض ما شجعه يوما على أن يهمس لمحمد ابنه :

- أريد أن أرقد عندكم . .

وفى الحال قال محمد على مسمع من ميرفت مخاطبا أباه :

- لو رقدت عندنا لأعفيتنا من زيارات لا نهاية لها!

وأدركت ميرفت مغزى قوله، فقالت مدارية ارتياحها :

- إنى فى خدمته مهما طال الزمن!

فقال محمد بشجاعة رجل شارع فى الزواج من ابنتها :

- هذا لا شك فيه . . ولكن يوجد عندنا كثيرون وأنت وحيدة . .

فقالت بلباقة وهى فى الواقع تختم علاقتها بالرجل :

- إنى راضية بما يريحه!

ولم تعارض سنية، وخالط حزنها على حامد ارتياح لاعترافه بأنها

رفيقة المرض وأن بيتها هو المأوى. هكذا رجع حامد برهان إلى فراشه القديم بالحجرة الخضراء فاستقر السلام فى عينيه الجميلتين. ولم يكن بقى من جسمه الهائل شىء يذكر، وتجسدت الشيخوخة فى وجهه كأنما ألقيت عليه فى لحظة خاطفة. ونظر فيما حوله بسرور طارئ، وقال بصوت متهدج:

- أوحشتمونى يا أولاد..

ولم يوجه كلمة إلى سنية قانعا بأن رجوعه يغنى عن أى قول. والحق أنه عندما جفت ينابيع شهوته لم يجد فى قلبه سوى حبها القديم كالكنز المدفون عندما تزاح عنه طبقة الأرض. وأن روحه - إذا حان الأجل - يجب أن تصعد من هذا المكان العتيق المبارك المعبق بأطيب الذكريات. وجعلت كوثر تنظر إليه طويلا ثم خانها صبرها فدمعت عيناها وقالت:

- تغيرت كثيرا يا بابا!

فوجم الحاضرون، ولكن حامد برهان ابتسم وقال بلسان مضى يثقل:

- وأنت يا بنت ألم تصيرى أما؟!

ولكنه سر الجميع بطمأنينته وأنسه بالمكان وأصحابه. وجاء يوم فى مطلع الربيع شديد الحرارة، فقال:

- لم أستحم منذ عهد طويل!

فقالت منيرة بإشفاق:

- نرجع إلى الطبيب.

فقال بمرح:

- الإنسان طبيب نفسه!

وذهب إلى الحمام معتمدا على سنية ومحمد، وجرى الماء على

جسده فاجتاحته فرحة شخص اعتاد طيلة حياته النظافة والأناقة، وعاد إلى فراشه سعيدا وهو يقول:

ـ الإنسان بلا صحة أقل من حشرة.

ولما جاء الليل لم ينم. تدهور بسرعة مذهلة حتى صار شحوبا مركبا على هزال. وأرق الليل كله يتأوه وجسمه يكاد يتقصف. وجيء بالطبيب فاحتج على الحمام بلا تحفظ، ولكنه حرر روشتة على أى حال، وعند منتصف الليل، وأهله محدقون به، أسلم الروح دون جهد كأنما غلبه نعاس مفاجئ.. ودل الحزن الشديد عليه على تعلق الجميع به. سنية فاق حزنها كل تقدير. ولما لم يكن يملك مدفنا فقد دفن فى مدفن آل المهدى بالإمام. وأنكرت سنية حال المدفن التى آل إليها، ورأت أنه أصبح فى حاجة إلى تجديد كالبيت القديم، فانضاف ذلك إلى الهموم التى استأثرت بها فى الزمن الأخير. ولعل كوثر كانت أحزن الإخوة عليه لطبعها الذى يستجيب للحزن بقوة غير عادية، ولأنها أحبت الرجل لدرجة العبادة حتى إنها غفرت له زواجه من ميرفت قبل محمد ومنيرة بزمن غير قصير. وعند مطلع الصيف رجع الموت لزيارة الأسرة فأخذ نعمان الرشيدى زوج كوثر متسمما بالباولينا عقب تدهور الكلى. ولعل الموت أراحه من رعبه الذى لم يكف عن مطاردته منذ جاءت الثورة. أجل، لم تكد تمسه قوانين الإصلاح الزراعى إذ إن مصادر ثروته ترجع إلى العمارات والأموال السائلة ولكنه اعتقد بأن دوره حتم مؤجل وأنه آت لا ريب فيه. وبكته كوثر بحرارة وصدق، ولكن سرعان ما أفاقت على تحرش أبنائه، فخف محمد إلى جانبها بأخوته وخبرته كمحام، ولكنها قالت له من أول يوم:

ـ أبعدنى عن التحديات فلا شيء فى الدنيا يساوى الشقاء.

فقال بتصميم:

ـ حقك تأخذينه لآخر مليم.

فقالت بضراعة:

ـ حقى مكفول بالقانون، ولكنهم ينظرون بطمع إلى الفيللا، وهى كبيرة ولا أطمئن فيها وحدى وأريد أن أعود إلى ماما فى حلوان.

ورجعت كوثر إلى حلوان حاضنة رشاد، وانهمك محمد فى فرز إرثها هى وابنها من الأرض والعمارات والأموال السائلة ثم انقطعت الصلة بآل الرشيدى إلى الأبد. ورحبت الأسرة فى باطنها الخفى بثروة كوثر. وانبعثت فى صدورهم آمال لما هو معروف عنها من طيبة واستكانة فاعتبروها هدية مرسلة من السماء حاملة الفرج لأزماتهم المستعصية. منيرة توغلت فى العمر حتى قاربت الثلاثين وهى ملهوفة على الزواج، ومحمد يشعر بأن عهد خطوبته طال أكثر مما ينبغى، حتى سنية تتوق بكل قواها لتجديد البيت والمدفن. تربصوا جميعا بأيام الحداد، ولما خفت الغيوم وواصل الراديو أغانيه. تشجعت سنية فقالت فى حياء مخاطبة كوثر:

ـ حبيبتى ألا ترين معى أن البيت فى حاجة إلى تجديد؟!

سرعان ما شعر محمد بالخطر يهدد مشاريعه فتبادل مع منيرة نظرة سريعة جمعتهما فى وجدان مشترك، فقال:

ـ البيت لا يعيبه شىء وهو يستطيع أن ينتظر.

فقالت سنية محتجة:

ـ إنه مأوانا على مدى العمر..

فقال بخبرة اكتسبها فى المحكمة:

ـ نحن فى حاجة إلى المعونة لا البيت..

وأشار إلى منيرة وإلى ذاته، ثم واصل ليخفف وقع كلامه:

ـ ولو على سبيل القرض!

فسرعان ما انهزمت سنية أمام رغبة محمد ومنيرة مؤجلة أحلامها إلى مستقبل مجهول، على حين تمتمت منيرة ضاحكة:

- ولو على سبيل الاقتراض.

ولكن كوثر على طيبتها كانت متمرسة بواجبات ست البيت منذ عملت مساعدة لأمها، وتعلمت منها مسك الدفاتر والحرص الحكيم وكراهة الإسراف، فكانت طيبة وحكيمة. وقد شاركت في ميزانية البيت منذ أول يوم لها فيه مما يسر العسر وأضفى على البيت سلاما. ولم تغب عنها أزمة محمد ومنيرة، فمالت إلى إسداء المعونة ووعدت بها. وحدث أن جاءتها خاطبة عقب وفاة زوجها بثلاثة أشهر بعريس محترم يماثلها في السن فانقبض صدر محمد ومنيرة، وقال محمد بنبرة الناصح:

- علينا أن نتأكد من إخلاصه.

ولكن من حسن حظهما أن كوثر أعلنت زهدها في الزواج مرة أخرى، واهبة نفسها لرشاد الذي يملأ دنياها، ومتشجعة بطبع هادئ يوشك أن يكون برودا. وعلى أي حال فبفضلها أمكن أن تتزوج منيرة من بهجت سليمان، وأن يتزوج محمد من ألفت. تزوجت منيرة بعد أن صار حبها حكاية واختارت عشها شقة جديدة بالعباسية على مقربة من مدرستها، أما محمد فزف في شقة بعمارة نصف جديدة بباب اللوق؛ ليكون على مقربة من المكتب من ناحية، وليمارس نشاطه السياسي في مجاله المركزي. وخلا البيت القديم لسنية وكوثر ورشاد وأم سيد. ورثت كوثر لنظرة أمها المتطلعة وأشواقها الدفينة فأمرت بطلاء الحجرات بالزيت وتنظيف الحديقة وشراء بعض أصص القرنفل، ورغم أن ذلك لم يحقق من الحلم عشره إلا أن سنية سعدت به ولم تيأس من هطول الرحمة ذات يوم، خاصة عندما يكبر رشاد الوسيم ويدعو الأصدقاء

للزيارة كما كان يفعل جده حامد برهان . وفي سكرة الفوز الطارئة أشارت بحياء شديد إلى المدفن ، ولكن كوثر قالت :

ـ ماما . . إني أتشاءم من هذه السيرة !

فلم تلح ، وأسفت ، وقالت لنفسها «ما هو إلا البيت الباقي» . غير أن قلبها فاض بالشكر . فلو أنها لقيت الحياة وحيدة بعد زواج منيرة ومحمد لاضطرت إلى استجداء أبنائها ، ولتجهمتها الحياة كما تتجهمها الأحلام فالحمد لله على أي حال . وسعدت سنية أيضا لتوفيق منيرة ومحمد في زواجهما كما استشعر ذلك قلبها في زياراتها لباب اللوق والعباسية . وقالت يوما لكوثر :

ـ بهجت أثبت إخلاصه بصبره الطويل ولكني غير مطمئنة لربيبة ميرفت . .

فقالت كوثر بهدوء :

ـ محمد يعرف كيف يتصرف . . .

وبرزت منيرة في عملها التربوي أكثر بعد أن شملتها سكينة الحب ، ودعا الأستاذ عبد القادر قدري محمد إلى مشاركته في مكتبه بعدما اعتقل أكثر من مرة لوفديته . قال يوما لمحمد :

ـ الوفدية أصبحت تهمة فانظر وتأمل !

وكاد محمد أن يجزع وهو ينتظر أن تسفر الثورة عن وجهها فتعلن حكم الإسلام ليحتل هو مكانته المشروعة . ولم يكن طموحه شخصيا فقط ، فقد ملكته التجربة الدينية التي انساق إليها قديما هاويا وبمحض المصادفة ، فبات يحلم بحكم الإسلام كأنه غاية من الغايات . وأنجب محمد شفيق وسهام كما أنجبت منيرة أمين وعلي وتورد الأفق . وإذا بأزمة تعترض سبيل الثورة ، وصراع عنيف يقوم بين رئيسها الأول ورئيسها الثاني . وبين شد كادت تصفى به الثورة وجذب رجعت به إلى

قواعدها انقض طوفان لتصفية الإخوان! وبدلا من أن يجد محمد نفسه على رأس مؤسسة أو وزارة ألقى به فى أعماق سجن رهيب . وبالرغم من أنه لم تثبت عليه تهمة إلا أنه قضى فى الاعتقال عامين ،.وخرج منه بعين واحدة وساق عرجاء . وهرع الجميع إلى شقة باب اللوق ، واجتمعت للمرة الرابعة سنية وميرفت حتى قالت سنية لنفسها «قضى على ألا أراها إلا عند حلول المصائب» . وضمت محمد إلى صدرها وهى تبكى وهتفت :

ـ عند الله الحساب يا بنى . .

وتقنع محمد بوجه جديد خبر الموت والعذاب ، ولكنه تجلد أمام الأعين ، وقال :

ـ إنى أحسن حظا ممن أهلكتهم المشانق أو غيبتهم السجون إلى الأبد .

وحاول أن يبتسم ثم قال بإصرار حقيقى :

ـ بقى لى إيمان لا يتزعزع .

وكان إصراره أقوى من صوته . الآن عرف الحياة والناس كما عرف الوحشية والعذاب . واستمد من أهله قوة أشعل بها شمعة فى عالم يموج بالظلام . وحانت منه التفاتة إلى ألفت فقبض على يدها ورفعها كأنما يقدمها إلى الجمهور فى حفل عام وقال :

ـ إليكم أفضل زوجة على وجه الأرض !

أجل ، لقد صمدت فى المحنة . قامت بواجبها كمترجمة وربة بيت وحضنت شفيق وسهام بالرعاية متحدية النبذ والتحقيق والرزق المحدود . أثبتت أنها أقوى مما توقع محمد أو تصورت ميرفت ، وأقامت على حب الزوج الغائب بتفان ، وتحمست أكثر لمبدئه ، ولما رجع شبحا محطما غمرته بالحب والحنان راشقة فى سمائه السوداء نجمة ماسية .

وكانت كوثر تزورها كثيرا طيلة العامين ، وعرضت عليها معونة ، ولكن

ألفت اعتذرت شاكرة وإن قبلت الهدايا لشفيق وسهام. فى تلك الأيام الحزينة قالت كوثر لأمها:

ـ ألفت هدية نادرة المثال.

فأحبتها سنية ـ ربما لأول مرة ـ وقالت:

ـ الشكر لله على أنها لم تعجن بطينة أمها.

ولم يكن تعريضها لميرفت من أجل مأساة الماضى وحدها، ولكن لرعونتها ـ عقب وفاة حامد برهان ـ التى صارت حديث حلوان. برزت كامرأة متصابية فى الخامسة والخمسين، متبهرجة، تنطلق بمفردها إلى الحديقة اليابانية أو السينما كأنما تعرض نفسها على الرائح والجائى. وجرى الهمس عن علاقة جديدة تتخلق بينها وبين حسن علما مهندس المبانى ـ أحد سمار مجلس المرحوم حامد برهان ـ ولما شاع ما يقال وملأ الأسماع تحولت العلاقة إلى خطوبة، وطلق المهندس امرأته، ولكن الزواج تأجل؛ إكراما لزوج ألفت السجين، وإن مورس بالفعل بصفة غير رسمية. وكانت كوثر تعلم بما يعلمه الناس جميعا، ولكنها قالت:

ـ ألفت معدن آخر والحمد لله!

وأخفى الخبر عن محمد فأمضى فترة نقاهة قصيرة، ثم رجع إلى مكتبه بعين واحدة وأخرى زجاجية وقلب متوثب للعمل. وغشى المحاكم وهو يعرج متأبطا حقيبته بذراع متوكئا بالأخرى على عصا غليظة. وانهمك فى عمله انهماك مؤمن معذب يحلم بطوفان نوح من جديد. ومضت سنية فى معاشرة آلامها التى لا شفاء منها، وأحلامها المعاندة المستعصية، مستوصية بالهدوء والصبر والرنو من حين إلى حين إلى الصورة التذكارية. ولكى تعفيها كوثر من بعض متاعبها استخدمت امرأة جديدة «أم جابر» كطاهية بعد أن اقتربت أم سيد ـ مثل أمها ـ من الستين، ولكى تستثمر جل وقتها فى رعاية رشاد الذى ألحقته بروضة

الأطفال سابقا ابنى خاله - شفيق وسهام - وابنى خالته - أمين وعلى .
هكذا بدأ جيل الأحفاد، أبناء العشق والآلام، والوطن تتجاذبه عوامل الصراع الخفية من ناحية وأحداث البطولات من ناحية أخرى . وعرفت منيرة زوجها أكثر وأكثر، زوجا عاشقا وفحلا عملاقا، وساذجا فيما يتعلق بالثقافة أو الحياة العامة، ولم يخدعها اهتمامه المباغت بالسياسة عقب اكتشافه أخاه ضمن الضباط الأحرار، وابتسمت فى باطنها لأحاديثه عن الثورة ورجالها، ولحملته على الماضى ومخازيه، ومرة قال لمنيرة مفاخرا :

- نحن نعتبر من الأسرة المالكة الجديدة .

فضحكت قائلة :

- على مهلك يا أمير !

رغم حماسها للثورة منذ ساعتها الأولى، والتى لم تتغير تغيرا يذكر بمأساة أخيها التى هزتها من الأعماق . على أن قلقا ساورها مذ طعنت فيما بعد الثلاثين . إنها تمضى وحدها مخلفة وراءها زوجها يزداد تألقا وفحولة، وجعلت تطارد كلمات أمها القديمة كلما نبضت فى خواطرها . واحتل سليمان بهجت مركزا ممتازا بقسم الخبرة بالزراعة بدفعة قوية من أخيه، وبدلا من أن يزيد من إسهامه فى ميزانية البيت ابتاع سيارة بالتقسيط رغم التحاق أمين وعلى بالروضة وارتفاع الأسعار ببطء ماكر . وذات مساء انفجرت قنبلة تأميم قناة السويس مبشرة بميلاد زعيم جديد . ليلتها قال بهجت لمنيرة :

- سمعت من مخضرم أن استقبال جمال فى عودته إلى القاهرة فاق استقبال سعد زغلول حين رجوعه من المنفى . .

فوافقته منيرة رغم أنها لا تكاد تعرف عن سعد شيئا يذكر . ولم يستطع محمد أن يتذوق المغامرة بفمه الملىء بالمرارة . واتفقت ألفت معه قائلة :

ـ معاملة إنسانية شريفة خير من بناء هرم .

فقال محمد :

ـ النبى عليه الصلاة والسلام أنشأ دولة إنسانية ولم يشيد هرما .

واستمع البيت القديم فى حلوان إلى النبإ العظيم . لم تفهم أم سيد ولا أم جابر شيئا ، وتوقفت كوثر عن تعليم رشاد دقيقة ثم واصلت عملها بحماس ، أما سنية التى لم تشغلها آلامها وأحلامها عن قراءة الجريدة والاستماع إلى الراديو فقد خفق قلبها ، واقتنعت ـ رغم مأساة محمد ـ بأن زعيما جديدا يتخذ موضعه فى لوحة الزعماء الذين أحبتهم كما أحبهم زوجها الراحل . وسكر البلد بالنصر والعظمة ، وانطلقت من صوت العرب زعامة عربية جديدة ، وتضاربت الأنباء ، واستفحلت الشائعات ، حتى تجسدت الحقيقة فى صورة عدوان ثلاثى ، ومرحت طائرات العدو فى سماء القاهرة ليلا ونهارا ، تمطر قنابلها على المطارات والمواقع العسكرية . ومع أن الدبابات لاذت بأفنية العمائر إلا أن انتصارات وطنية ملأت الجو كالعاصفة وتمزق الناس بين الحماس والترقب . وتابع محمد وألفت الإذاعات الأجنبية ، حتى قال الرجل :

ـ انتهت حركة المجرمين ، ولكن ما أفدح الثمن !

وقالت سنية لكوثر :

ـ أذنى سعيدة وقلبى كئيب !

فقالت كوثر مدفوعة بالخوف الذى ركبها :

ـ البلد خرب يا ماما .

فأشارت سنية إلى فوق متمتمة :

ـ لكنه موجود .

وآنست منيرة من سليمان بهجت ذعرا كأنه فأر مطارد . ودعا ربه قائلا بحرارة :

ـ اللهم لا تشمت بنا الأعداء . .

وكانا يستمعان إلى صوت أمريكا بوجوم ويغوصان فى هوة خطوة فخطوة . ولكن هبت رياح شرقية وغربية فتناغمتا معا لأول مرة . احتجت أمريكا بجدية وصرامة . وتتابعت الإنذارات الروسية كالصواريخ حتى أجبر الغزاة على تصفية نصرهم بأنفسهم فى إذلال لا نظير له فى التاريخ . وتجلى نصر عجيب كما تتجلى فتاة الساحر من الصندوق ـ بعد غرز سيوفه فيه من جميع النواحى أمام المشاهدين ـ وهى تبسم فى مرح وأمان وثقة ! وسرعان ما آمن الحى والجماد بأن الزعيم حقق ظفرا كالمعجزة وبأنه عملاق بين أقزام . وصادر أموال الإنجليز والفرنسيين ، ضاربا للمضطهدين مثلا أعلى ، واهبا للعرب زعامة جبارة ، وانتفخ بالتالى كل مواطن نافضا عن كاهله ذل العصور ، وآوى الخصوم إلى الجحور ولا مطمع لهم أكثر من النسيان . ودخل الأحفاد المرحلة الابتدائية وهم يتغنون بالزعامة والنصر . سبحوا فى بحيرة ناصرية صافية متطلعين إلى صورته الشامخة بانبهار وحب . ذلك البطل الذى بدأ به تاريخ مصر فى أعقاب جاهلية ترامى ظلامها آلاف السنين . أجل ، حفلت المدارس الجديدة بمنغصات ـ كالكثرة العددية وندرة المدرسين المؤهلين وقصور البرامج ـ ولكن التلاميذ الجدد لم يشعروا بها ، فعاناها أولياء الأمور وحدهم . أما كوثر فحلت المشكلة بمالها فكلفت الأستاذ جعفر إبراهيم ـ ناظر مدرسة على المعاش ومن سمار المرحوم حامد برهان ـ بإعطاء رشاد دروسا خصوصية فى العربية والجغرافيا والتاريخ ، كما كلفت الأستاذ راضى أبو العزم ـ من السمار أيضا ـ بإعطائه دروسا فى العلوم والرياضة . وانتزع محمد وألفت من وقتهما المشحون بالعمل ساعات لمساعدة شفيق وسهام ، على حين نهضت منيرة وحدها بعبء التدريس لأمين وعلى . وامتعضت مدام ميرفت من الحال من ناحية أخرى ، فقالت لألفت :

ـ كيف ترضين لشفيق وسهام بالجلوس جنبا إلى جنب مع أبناء البوابين والخدم؟!

فقالت ألفت:

ـ مدارس اللغات والمدارس الخاصة باهظة التكاليف.

واستاء محمد لأسباب أخرى وهو يراجع كتب التاريخ والتربية الوطنية فضرب كفا بكف، وقال لألفت:

ـ إنهم يحشون عقول الأولاد بالأكاذيب . .

وتضاعف استياؤه وهو يشاهد حماس شفيق وسهام وتغنيهما بالزعيم على مسمع منه، وهو لا يملك إزاءهما أية مراجعة، حرصا على سلامتهما، وسلامته أيضا أن يرددا أقواله فى المدرسة فيحدث ما لا تحمد عقباه. من أجل ذلك أخفى عنهما سر عوره وعرجه، وراح يغمغم:

ـ نحن فى زمن القهر والصمت!

ونشأ رشاد وسيما، ذا طول ورشاقة، أنيقا، مغرما بأمه وجدته، مغرما بالسباحة، مع اعتدال فى تحصيل العلم حتى ساواه أبناء خاله وخالته. وأحبته جدته أكثر من شفيق وسهام وأمين وعلى؛ لقربه من القلب والعين، ولأفضال أمه المحبوبة، ولأنها عقدت به تحقيق آمالها فى تجديد البيت والمدفن. أجل، بدا لعينى جدته ـ مثل شفيق وسهام وأمين وعلى ـ كأنه مخلوق بلا جذور، وكأنه لا يتنفس فى جو بيتها القديم. من ذلك أنه سمع مرة اسم سعد زغلول يتردد فى حديث، فسأل أمه ببراءة:

ـ سعد زغلول حى يا ماما؟

وانزعجت سنية رغم أنها بررت جهله بشتى الأعذار. ومن ذلك أيضا بروده إزاء أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وولعه بعبد الحليم حافظ والأغانى الإفرنجية، وتساءلت كيف دهمه هذا التمرد على تقاليد أسرته وذوقها؟! وأخير قالت بتسليم:

ـ إنهم مزعجون ولكن لكل جيل شأنه!

ومن شدة حبها لرشاد قالت أيضا:

ـ التنوع له جماله أيضا . .

أما شفيق فكان أشبه الأحفاد بحامد برهان، فاق والده محمد فى ذلك، وكان ذا صوت مقبول يحاكى به الأغانى الخفيفة، وبشر اجتهاده بحياة مدرسية ناجحة، وكان يغالى فى عواطفه حتى يضيق به أبوه أحيانا، ويحول بينه وبين محاولة التسلط على أخته سهام. وكانت سهام صورة من عمتها منيرة فى جمالها البراق وذكائها اللامع فسُرَّ محمد بذلك سرورا لا مزيد عليه. وأما ابنا منيرة فقد عُرف أمين بالاجتهاد كما عُرف على بالعناد، واتفقا معا فى طول غير عادى، حتى قال سليمان بهجت:

ـ هكذا كان والدى . .

واعتاد محمد ومنيرة ـ وأفراد أسرتيهما ـ أن يتناولوا الغداء كل جمعة فى البيت القديم مع سنية وكوثر ورشاد. توثقت الصلات بين الصغار، ووضح الخلاف بجلاء بينهم وبين آبائهم. وسعدت سنية بالزيارة الدورية سعادة خففت من وطأة آلامها الدفينة وأحلامها الملحة. وبإزاء تعنت أحلامها تحول اهتمامها مؤقتا إلى ذاتها. ند ذلك عنها دون شعور أو تخطيط، ولكنها انساقت إليه خطوة بعد خطوة، كأنما قررت أن تصون نفسها من شوائب الزمن. مرة لا تعجبها أسنانها فتمضى إلى طبيب الأسنان للتنظيف أو الحشو أو الوقاية. ومرة تتوعك عيناها وهى تقرأ فتذهب إلى طبيب العيون فيعد لها نظارة طبية. وعلى حين أن كوثر تتوارى فى زهد وتكبر قبل الأوان وتتعبد فى حماس فإن سنية ـ على تدينها وتقواها ـ ضاقت بأول شعرة بيضاء تحبو وسط شعرها الفاحم. كرهت منظر الشيب ووجدته متنافرا مع ما تحظى به من صحة جيدة.

وفى الحال أحيت تقليدا كانت أمها تتبعه فى حياتها وهو صبغ شعر رأسها بالحناء فتحل الحمرة الداكنة المتفردة محل السواد التليد والبياض الوليد. وترى كوثر وهى ترمقها باسمة فتقول بوقار متغلبة على حيائها:

ـ إنها وصية جدتك يا بنت!

وهى فخور بنفسها، بذكائها واطلاعها الدائب، وتضع نفسها فى موضع أعلى من محمد ومنيرة المتعلمين فى إدراك أبعاد الحياة المعاصرة، بالإضافة إلى موهبة الحلم والحدس التى لم ينعم الله عليها بشىء منها، ولكنها كانت تكره الشيخوخة ومظاهرها وترنو إلى شباب دائم مازجة ذلك بحب صاف للحياة ولله خالق كل شىء. وفى لقاءات الجمعة لمست تطلع محمد ومنيرة لإعداد أبنائهما للطب أو الهندسة فخامرها قلق من ناحية حبيبها رشاد وما يستطيع أن يحققه لمستقبله. وتملت جمال سهام بنت محمد فرأت أنه سيكونِ هدفا يدور حوله رشاد وأمين وعلى، وأنه سيثير متاعب عاطفية فى أسرتها الممتحنة بعواطفها دائما وأبدا فسألت الله السلامة، وعزت نفسها متنبئة بأن صاحب القسمة والنصيب سيفوز بها قبل أن يقع أحد أقربائها فى حبها. وفى حماية العلاقة الأسرية نشبت مناقشات صريحة بين محمد وسليمان بهجت، تبدأ عادة عندما يذهب الأحفاد للعب فى الحديقة أو للمشى فى شوارع حلوان الهادئة المترعة بالنقاء والجفاف. يقول محمد متأسفا:

ـ حتى أمام الابن لا يأمن الأب أن يفضى بذات نفسه!

فيقول سليمان ومنيرة تضحك منه فى سرها:

ـ ملايين الفقراء لا يعرفون الخوف، إنه عهد الفقراء!

فيقول محمد:

ـ خير من ذلك أن يكون عهد الفقراء والأغنياء على السواء فالله خالق الجميع ومدبر لكل عملا صالحا يرضاه!

ومضت الزعامة الجديدة تتوطد وتعلو من سماء إلى سماء حتى وحد سحرها المتطاير ما بين مصر وسوريا فى وحدة باهرة. تجسدت القومية العربية كحقيقة زاحفة مثلما تتجسد فى الخيال كحقيقة تاريخية. وعبده الأحباب، وسلم به الأعداء مقرين بأنه ليس ابنا للمصادفات أو المؤامرات الأجنبية ولكنه ابن القدر المنذور لتغيير مجرى التاريخ. وانقلبت الرعية إلى نسور ودناصير، وتعملقت الدولة الجديدة، وألقت السماء بلسما ليداوى جرح أمة تمرغت فى التراب قرونا تحت أقدام القهر والعدوان. وما مضى وقت يذكر فى تاريخ الأمم حتى انتبه السعداء على جعجعة نيزك داهم على الوحدة فيفتتها فى لحظة مهداة للأحزان. أى رد فعل عنيف هز الناس المتزاحمين حول الراديو فى شتى المواقع! قال كل إنسان ما يشتهى. وانتفضت من جديد أصوات الشماتة والسخرية. وتلقى الزعيم الضربة بغضب، ثم ردها بعنف نحو مرمى جديد فانفجرت القرارات الاشتراكية، وحقق الفقراء نصرا تاريخيا من خلال معركة لم يقتربوا خطوة من ميدانها. وقال الأستاذ عبد القادر قدرى لمحمد:

- لم يعد للمحاماة وزن!

- كان الرجل فى الأربعينيات عضوا بمجلس النواب، وعين فى الخمسينيات عضوا بمجلس الشيوخ، وكان خطيبا ذا شأن وبرلمانيا ممتازا، وهو اليوم يبدو شاحبا هرما دائم الامتعاض، معدا حقيبته لأى اعتقال محتمل. وأدرك محمد أبعاد الموقف فأفضى به لألفت ثم قال:

- ستزداد الحياة عسرا.

واهتمت كوثر لأول مرة بما يجرى حولها. لم تمسها الإقرارات فى شىء، ولكنها شعرت بأن فوهة المدفع مسددة نحو القلعة التى تنتمى إليها، وسألت أمها:

ـ ماذا يخبئ لنا الغد؟

فقالت سنية :

ـ المخبأ فى الغد مكتوب قبل أن تخلق السماوات والأرض!

فقالت كوثر بإشفاق :

ـ إنى أفكر فى رشاد، وفيك أيضا يا ماما!

فقالت بهدوء :

ـ إنه رحمن رحيم!

وكانت تسائل نفسها هل يدركهم المد؟ قالت لنفسها إن قراراته ـ الزعيم ـ تجىء فى صالح الفقراء الذين لا يملكون فلا خوف على محمد ولا منيرة. أما كوثر فالأمر مختلف، وكذلك رشاد، فهما يملكان أرضا وأنصبة فى عمارات، وأموالا سائلة. وقالت كوثر بقلق :

ـ العهد الذى فعل بأخى محمد ما فعل لا يعف عن كبيرة!

وراحت سنية تفكر. أما أحلامها عن البيت والمدفن فقد تراجعت خطوات. وفى أحد لقاءات الجمعة قال محمد لكوثر :

ـ اسحبى نقودك من البنك واحفظيها تحت يدك قبل أن يشمها الوحش.

فقالت كوثر بتلقائية :

ـ قد يسرقها لص عادى!

فقال لها :

ـ ابتاعى بها ذهبا وسجاجيد!

عند ذاك نظرت كوثر نحو زوج أختها سليمان بهجت كأنما تستطلع رأى الجهات الرسمية، فقال :

ـ خير الأمور الوسط.

ومالت لرأيه داعية الله أن يحفظ مال رشاد. وفى طريق عودتهم بسيارة سليمان بهجت الفيات قال محمد:

ـ لا أمان لأحد!

قالت منيرة لنفسها تجنبا لإغضابه: «٩٠٪ من الشعب ثملون بالأمل». وعاد محمد يقول:

ـ ما هى إلا قرصنة وإلا فلماذا يعيشون عيشة الملوك؟!

فقال سليمان بهجت:

ـ حتى فى روسيا يعيشون كذلك!

فقال محمد:

ـ رحم الله ابن الخطاب!

وتجلت رؤيا سنية فرأت البيت القديم يضيء بجدة زاهية. رممت أركانه، وتجددت أبوابه وسلاليمه، ووافاه أثاث جديد، أما غرف النوم فحافظت على شرقيتها، ولكن العصرية شملت حجرات الاستقبال والسفرة، وبعثت الحديقة من جديد فاخضرت أرضها وانتشرت فوقها أشجار البرتقال والليمون والمانجو ودوائر الأزهار والورود، أما سورها الطويل فغطى تماما بالياسمين، ولمحت حامد برهان يقوم بعمل البستانى مستردا صحته وبدانته. سعدت جدّاً، ولكنها سألت البستانى بعتاب:

ـ لم لَمْ تزرع شجرة حناء؟!

ولم تبح بحلمها لكوثر أن تتوهم أنها تذكرها بأحلامها فى وقت غير مناسب. وسرعان ما نسيت الحلم تماما عندما أذاع الراديو نبأ ثورة اليمن وموقف مصر منها. وفى أول لقاء عقب الحدث دار النقاش حوله بعد الغداء. قال محمد ساخرا:

ـ أصبحنا أوصياء على ثورات العالم!

فقال سليمان بهجت:

ـ ما هى إلا نزهة تحل بعدها اليمن مكان سوريا .

فقال محمد بعناد :

ـ ما زالت أغلبية الشعب حفاة!

ـ لا تنكر أنكم كنتم أول من شارك فى الثورة على الإمام!

ـ اشتراك الفدائيين بطولة ، أما الدولة فمسألة مختلفة تماما .

فسأل سليمان سنية مداعبا :

ـ ورأى أمنا الحكيم؟

ولكن سنية قالت باقتضاب :

ـ صدرى لا ينشرح للحرب . .

فقال محمد متهكما ومعلقا على اشتراك الجيش المصرى فى الحرب :

ـ كأنه قرار إسرائيلى !

وسرعان ما شغلت سنية بأمر آخر . جعلت تقارن بين منيرة وسليمان بقلق . لم يتجلى الكبر فى وجه منيرة بسرعة؟ لم يزداد زوجها فتوة وشبابا؟ ما زال بينها وبين الأربعين بضع سنوات ، ولكن سحر جمالها ينطفىء بمعدل غير طبيعى . ولعلها ليست على ما يرام . إن قلبها لا يخطىء . حياتها تدعو للسرور بعكس ما يبدو . أمين وعلى يطويان المرحلة الابتدائية بنجاح ، زوجها نال فى عمله أضعاف أضعاف ما يستحق ، هى نفسها ستعين ناظرة دون نقل إلى الأقاليم بفضل أخى زوجها ، ولكن فارق السن بينها وبين زوجها يتسع بسرعة غير معقولة ولا مقبولة . محمد نفسه ألف عوره وعرجه وتراجع رزقه ، وها هو ذا يمضى فى حماية إيمان لا يتزعزع ، وزوجته سعيدة . والتقت عينا منيرة بعينى أمها فقرأت صفحة طويلة وخُيّل إليها أن سرها انكشف . هل تفضح عيناها مخاوفها الباطنة؟! الحق أنها استشعرت تغيرا غير حميد فى قلب سليمان وسلوكه معها . قالت مرة لنفسها وهى وحيدة :

ـ لم أتزوج رجلا واحدا ولكن جملة رجال فى رجل .

واستعاذت بثقافتها فقالت أيضا :

ـ لعل هذا ما يئول إليه الحب!

وتذكرت كلمات ومواقف تهادت إليها على مدى العمر من علم النفس والروايات والمسرحيات والأفلام، على أنها كرهت أن تفتح أمها ذلك الباب. وإذا بسليمان يقول مغيرا مجرى الحديث :

ـ أخيرا قررنا إدخال التلفزيون فى بيتنا!

كانت منيرة من رأيها التريث حتى يعرف أثره على الأولاد، وتبعتها فى ذلك كوثر ومحمد، غير أن سليمان قال لها :

ـ لا يمكن أن نعيش خارج زماننا . .

وكانت أيضا فى قرارة نفسها مقتنعة بقوله فسرعان ما سلمت. وما إن ذهب الزوار حتى قال رشاد لأمه :

ـ تلفزيون يا ماما . .

ولحق بهما كذلك محمد. وفاقت فرحة الأحفاد بالتلفزيون كل تصور. فقد جاءهم إلى مجلسهم بنجومهم المحبوبين، والعالم كله، فضلا عن زعيمهم المقدس الذى عاشرهم ليلة بعد أخرى. ولما رأت سنية التلفزيون تذكرت يوم دخل الراديو لأول مرة فى بيتها. كانت أمها ما تزال على قيد الحياة فقالت :

ـ اقتربت القيامة يا أولاد!

وكان هدوء حلوان فى تلك الأيام البعيدة شاملا وعميقا حتى ليستمع فيه الإنسان إلى خواطره، لا كهذه الأيام التى مضى يتكدر فيها صفوه بإقامة العمائر بل والمصانع. وكانت هى فى غاية من السعادة وصفاء البال رغم أن الوطن لم يعرف الراحة قط. ويجىء الزمن كل يوم بجديد، وتكثر مسراته وأحزانه، ويتمزق القلب فى معاناة الحنين بين

الماضى والحاضر. وأخشى ما تخشاه أن يجىء الأجل قبل أن يتحقق الأمل. ولما انتهى إرسال التلفزيون لأول مرة قالت لكوثر:

ـ سيزورنا العالم كل ليلة بكل ما فيه..

فابتسمت كوثر، ثم نظرت إلى رشاد قائلة:

ـ لا يلهينك شىء عن المذاكرة يا حبيبى.

ولكن عصر التلفزيون كان قد بدأ. وثار فى صدور الأحفاد صراع بين الواجب والتلفزيون.

كان لمحمد مكتبة، وكذلك منيرة، وأقبل شفيق وسهام، وأمين وعلى، على كتب الأطفال وغيرها إقبالا يبشر بالخير، وسوف يزداد ولا شك بدخولهم المرحلة الثانوية فى العام القادم، غير أن التلفزيون أثبت أنه منافس خطير فالتهم نصف وقت القراءة فى أول جولة ومضى يهدد النصف الآخر. وفى ذلك الوقت ناهزوا البلوغ فلفتهم حيرة مشرقة متحدية، وانطلقوا فى العطلة الصيفية مع الصحاب إلى الميادين والحدائق ودور السينما، واحتدمت المناقشات، وطالب كل فرد منهم باستقلاله الذاتى، فلم يتفقوا على شىء قدر اتفاقهم على القبوع ليلا أمام صندوق الدنيا الجديد بمتنوعاته التى لا نهاية لها، وضيافته الكريمة التى تمتد من الأصيل إلى ما بعد منتصف الليل. فى ذلك المعترك الجديد اعتقد رشاد أنه رجل البيت القديم، وأخذ يعرف أشياء عن ثروته المحفوظة ويستفحل أمره إزاء ضعف أمه وحب جدته له. ورأته كوثر اتفاقا ذات جمعة وهو يغتصب قبلة من سهام فى ناحية من الحديقة. ورجعت سهام منسحبة من ملعب الأحفاد إلى مجلس الجدة والآباء شاردة اللب. وخافت كوثر أن تشكو سهام إلى والديها ما ند عن رشاد ولكن الأزمة مرت بسلام. ولما خلت كوثر إلى أمها بعد ذهاب الزوار أفضت إليها بالسر فابتسمت سنية متمتمة:

ـ لعب برىء!

فقالت كوثر:

ـ سهام أنضج من سنها وعلى منيرة أن تفتح عينيها!

وتفكرت قليلا ثم سألت أمها:

ـ أينبغى أن أحذره؟

فكان جواب سنية أن نادت رشاد. أجلسته لصقها فى حنان وقالت مقتحمة الموضوع مباشرة كعادتها:

ـ قالت لى العصفورة إنك معجب ببنت خالك سهام؟

فتورد وجهه، ولكنه قال بجرأة ناظرا صوب أمه:

ـ إنى أعرف هذه العصفورة!

ـ ماذا تريد منها؟

فقال بجرأة أكثر:

ـ أن أتزوج منها يوما ما.

فابتسمت سنية، ولكن كوثر قالت:

ـ الاختيار الصحيح ما يقع فى الوقت المناسب.

ولكنه تجاهل أمه وقال لجدته:

ـ افعلى شيئا يا ستى!

وفى الجمعة التالية غابت عن المناقشة المحتدمة متحينة فرصة لإعلان طلبها. كانت المناقشة تدور حول «نزهة اليمن التى انقلبت إلى متاهة دموية متعطشة لدماء الأبطال وأموال الفقراء. قال محمد:

ـ أسمعت ما يقال عن أغنية أم كلثوم «أسيبك للزمن»؟.. يقال إن الأصل هو «أسيبك لليمن»!

فقال سليمان بازدراء:

ـ اشتموا كيف شئتم بدماء الأبطال . .

فتساءل محمد جادا :

ـ أيرضى عاقل بذلك وعلى حدوده عدو كإسرائيل؟

فقال سليمان وقد بات يحلم بوكالة وزارة الزراعة :

ـ إننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط .

ـ بفضل الملحدين!

ـ نحن نأخذ منهم السلاح والعدالة ولا شأن لنا بإلحادهم .

ونفد صبر سنية فقالت بصوت جهير مخاطبة محمد :

ـ هدئ روعك وأعطنى سهام لرشاد!

لم يفهم محمد مضمون الطلب لأول وهلة ولما أدركه تناسى انفعاله وقال بسرور خفى :

ـ الله . . الله . . ما زالوا أطفالا . .

فقالت سنية :

ـ ولكنى جادة تماما ، ورشاد هدية . .

ـ وسهام هدية أيضا ولكن إعلان خطوبة الآن أمر يدعو للضحك . .

ـ هل ترفض؟

ـ أبدا . . . لنقرأ الفاتحة . . ليكن حجز حتى يجىء الوقت المناسب . . وعلىّ أن أشاور البنت أيضا!

وتمت الموافقة وتم الحجز . واستمد رشاد من حبه الناشئ همة أكبر فى العمل ، ولكن السباحة ظلت حائزة لاهتمامه الأول . وكان جل أصحابه من الرياضيين فكان فى السياسة والدين معتدلا ، وعلى رغم شعوره بالثراء والأصل فإنه كان لطيفا سمحا محبا للناس تياها فى الوقت نفسه بقوته الجسدية وحسن منظره . وأمل أن ييسر له «الحجز» إشباع حبه فى

حدود البراءة، ولكن سهام ـ مع ميلها إليه ـ لم تشجعه، وكفت ـ مرحبة بنصيحة أمها ـ عن مشاركة الأحفاد فى ملعب الحديقة، منضمة إلى مجلس جدتها، تتابع أحاديث السياسة بفتور، وتستاء لأقل إشارة تسيء إلى الزعيم. ولم تكن صفحة بيضاء فقد انسربت إلى أذنيها معلومات محرمة من زميلات فى المدرسة أو فى البيت سرعان ما ربطت بينها وبين ما تسمع من تلميحات فى التلفزيون. ولما كانت علاقتها بأمها علاقة صداقة فقد تجرأت على أن تروى لها بعض النوادر، التى لا تخلو من مغزى جنسى حتى نصحتها ألفت فى التدقيق أكثر فى اختيار صاحباتها. وبسبب من ذلك قالت ألفت لمنيرة ذات يوم:

ـ هذا التلفزيون يهيئ للبنت الصغيرة معلومات لا تتاح عادة إلا لشابة ناضجة!

فأدركت منيرة ما تعنيه، ولكنها تساءلت:

ـ أليس هذا أفضل؟

ـ فى الخير نعم، ولكن ليس فى الشر!

فتفكرت منيرة قليلا، ثم قالت:

ـ لعله أفضل أيضا!

فقالت ألفت باسمة:

ـ إنك ناظرة ومربية ولكن محمد له رأى آخر!

ـ لا خير فى بناء يقوم على الجهل!

ثم وهى تتنهد:

ـ مشكلة أمين وعلى أنهما يفقدان متعة القراءة يوما بعد يوم..

فتساءلت ألفت:

ـ أكان الأفضل ألا ندخل التلفزيون فى حياتنا؟

ـ لا جدوى من قرار يتخذ ضد تيار الحياة، المسألة هى كيف يمضى التطور بأكبر فائدة وأقل خسارة. . الواقع أننا نسىء إليهم بالمدرسة أكثر من التلفزيون ألف مرة. .

ـ هذا حق، وحتى فى السياسة لا وزن لوعيهم السياسى، إنهم يؤمنون بالزعيم وبأى كلمة ينطق بها ولا شىء قبل ذلك أو بعده. .

فقالت منيرة بارتياح خفى:

ـ بداية لا بأس بها فى مثل سنهم. .

كانت مثل ابنيها ناصرية لحما ودما وكانت سعيدة بذلك. ليتها تسعد فى حياتها الحميمة كما تسعد فى حياتها العامة. وإن يكن الفتور آفة حتمية تقرض جذور الحب، وإن يكن أثره قد تجلى فى حب سليمان لها فلم لا يحدث المثل فى حبها له؟! لم تصر على مكابدة حب ذلك الرجل الذى لا تعد مثالبه؟ ولم يقف عذابها عند هذا الحد وإنما بات يطاردها إحساس وحشى بأنها موشكة على فقده. وكانت سنية المهدى مستسلمة لخواطرها الحزينة عن منيرة عندما فاجأها محمد بزيارة عند أصيل يوم أحد فتوجس قلبها خيفة. سبقها إلى حجرة نومها الخضراء وجلس أمامها يرنو إليها كمن يتهيأ لإلقاء ما عنده ثم قال:

ـ ماما، بلغنى من مصدر فوق الشك أن سليمان بهجت متزوج من الراقصة زاهية!

اختلجت عيناها وراء نظارتها وساد صمت ثقيل. كانت مرتدية روبا بنيا ثقيلا، متلفعة بشال قطيفة أزرق، اتقاء لبرد قارص. ولما طال الصمت قال:

ـ تأكدت من الخبر تماما. .

ساءلت نفسها: هل تتوارث المآسى؟ وكيف يقع هذا لدرة الأسرة؟! وتملصت من صمتها قائلة:

ـ الأخبار السيئة لا تكذب.

وساءلت نفسها: ألا يخلو أحد فى أسرتى من عاهة؟! قالت:

ـ الأمر لله، استمر..

ـ يجب أن تعرف!

ـ إنى خير من يبلغ الأخبار السيئة.. وبعد؟!

ـ ستطالب بالطلاق، ولكنى ضد ذلك إلى الأبد..

ـ أوافقك، ما هى إلا نزوة طارئة، ولكن يلزمنا طاقة خيالية لإقناعها..

ـ فليكن!

وسرعان ما استدعت منيرة، وعلى طريقتها فى مواجهة المصائب قالت:

ـ عندى خبر سيئ يا منيرة..

كان كالموت يفجر الإحساس بالمفاجأة رغم التسليم بمجيئه الحتمى. لم يجد جديد إلا الجهر بالوساوس المعذبة الخفية. لكنها اصفرت غضبا وارتسمت فى قسماتها صورة صارمة. قالت:

ـ أمر يثير التقزز..

ثم بحسم:

ـ الطلاق..

غطت سنية وجهها براحتيها متفكرة، ثم تمتمت برجاء:

ـ على مهلك!

ـ لا مجال للتمهل أو التفكير..

ـ التسرع فى قرار مصيرى غير مقبول.

ـ لكنه الحل الوحيد يا ماما..

فقالت متنهدة :

ـ لا أراه كذلك . .

ـ لا مفر منه .

ـ حدث لى ما يحدث لك ، ولكننى لم أفكر فيه . .

ـ ذاك زمان مضى ، والملابسات جد مختلفة فأنا ناظرة مدرسة فكيف ألقى الرجال والنساء وهم يعلمون أننى زوجة لها ضرة راقصة!

ـ ما هى إلا نزوة ، فكرى بالبيت والأولاد والمستقبل .

وائتمروا جميعا على معارضتها وإقناعها بالصبر . والعجيب أن سليمان بهجت صمد للعاصفة ببلادة وثقة ، معتزا بحقه المطلق فى الزواج ، متناسيا عهد حبه القديم . وقال :

ـ علينا أن نتسامح مع أمور يتكرر وقوعها كل طلعة شمس . .

فقالت له بحدة :

ـ افعل ما تشاء ولكن خلصنى . .

فقال متظاهرا بالانزعاج :

ـ معاذ الله . . إنك الأصل والأم والأبناء . .

فهتفت بحنق :

ـ هل عملت حسابا للأولاد قبل أن تفعل فعلتك؟

فقال بمسكنة :

ـ إنى أمر بمحنة وأنت عقل كبير ، ولكنى لن أفرط فى بيتى!

وجدت نفسها وحيدة مع فكرتها ، وفضلا عن ذلك فلم يكن الطلاق بيدها ، وأخيرا قال لها محمد :

ـ رجائى أن تؤجلى البت فى الموضوع شهرا!

فمنحها حلا تدارى به هزيمتها . وسافر سليمان بهجت إلى المغرب

لحضور مؤتمر زراعى على مستوى البلاد العربية . ولما رجع إلى العباسية وجد منيرة قد جعلت من حجرة مكتبها مكتبة وحجرة نوم فأضافت إلى ركن منها كنبة تتحول إلى فراش عند اللزوم فاطمأن إلى أنها عدلت عن التشبث بالطلاق وإن قررت أن تنفذه فى الواقع . وشعر فى أعماقه بارتياح خفى فانطلق من أريحية مباغتة يقول :

ـ أنت أنت ، وكما كنت مذ ربط بيننا الحب .

كرهت محادثته كما كرهت النظر إليه . كانت تعانى أتعس لحظات حياتها . اندفن حبها تحت ركام من الحنق والغيرة والإحساس الأليم بالغدر . وغرقت فى حوار طويل مع نفسها المحمومة . إنها تستحق أضعاف ما حاق بها جزاء حبها لرجل تافه . قد تعذر على حبها فى سن باكرة ، ولكنها نضجت فلم تتلاش الغشاوة عن عينيها ، بل نضج الحب أيضا وتفاقم خطره . واغتفر الحب عيوبه ، فقبله رغم أنه ما هو إلا حيوان جميل ، بلا عقل ولا روح ، يحركه الطمع والمنفعة الرخيصة . وما حبها إلا شهادة ضدها . ملأ القلب دون أن تزحمه قطرة واحدة من الاحترام . هل يصح أن تهيمن على حياتنا قوة عمياء لا معقولة تزرى بما حصلناه من ثقافة وحضارة ؟! إنه مخجل بقدر ما هو حقيقة واقعة . على ذاك فعقابى دون ما أستحق . وغمغمت بعذاب :

ـ غجرية ، لا ناظرة ولا مربية !

فلتقتلع من الآن فصاعدا جذور الحب من قلبها الضال . ولتكن مثل أمها فى الكبرياء فلا ترضى بمنافسة امرأة دونها . وقد قرأت لها أم سيد الفنجان وقالت وهى تقرب عينيها الضعيفتين من جوفه :

ـ بعد الشدة يجىء الفرج .

واقترحت حيلا من السحر والرقى وزيارة بعض الأضرحة المشهود لها بالفاعلية فابتسمت بمرارة ولم تنبس . وقالت لنفسها :

ـ لا دواء للغدر إلا الرفض .

على أى حال برئت من مطاردة القلق الوحشية ، وتحررت من إلزام نفسها ما لا يلزم ـ تشبثا بذيول جمالها ـ من رجيم قاس وزينة مبالغ فيها . الآن تستطيع أن تهب نفسها خالصة لعملها الجاد وابنيها الواعدين ، متأسية بأخيها محمد فى صبره وعزيمته وإيمانه . أما أمين وعلى فعلى دهشتهما لم يدركا أبعاد المأساة . كانت علاقتهما بأبيهما ودية وسطحية بخلاف أمهما المربية والمرشدة والصديقة . وقال أمين لعلى :

ـ بابا أخطأ .

فقال على :

ـ وأساء لماما . .

وكلما ظهرت زاهية فى التلفزيون تفرسا فيها باهتمام وفضول وحنق . وقال أمين لنفسه :

ـ بابا يتزوج للمرة الثانية ، أما أنا ففقدت سهام إلى الأبد!

لماذا؟ إنه ليس دون رشاد رواء ، وأطول منه ، وأذكى ، ولكن الآخر غنى . ولعله لم يحب سهام كما أحبها رشاد ، ولكنه لعن رشاد وسهام والجميع . وقال لأمه :

ـ الثورة معتدلة أكثر مما ينبغى يا ماما!

فدهشت منيرة وسألته :

ـ أتريدها شيوعية؟!

فتساءل :

ـ وما الشيوعية؟

فترددت قليلا ، ثم قالت :

ـ هى الإلحاد!

فوجم. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأن سهام أهون من أن يخسر بسببها دينه. وكانت منيرة تعرف عنه أكثر مما يظن فأحزنها أن تكابد ـ هى وابنها ـ مرضا واحدا، فأوشكت أن تنهزم أمام دمعة محتدمة. وقالت له بغموض:

ـ ما نتصوره ونحن صغار يتغير ونحن كبار!

أما على فكان يهيم ببلوغه فى واد غريب، عشق بطريقة عشوائية ميرفت هانم حماة خاله محمد. رآها عن قرب فى بيت خاله وهى تزور ألفت مصحوبة بزوجها الأخير الأستاذ حسن علما. لم يكترث لسنها الزاحف نحو الستين، ولكن بهرته أناقتها، وصوتها العذب، وشعرها الذهبى، وبشرتها المنيرة. سرعان ما عشقها انفراديا، وكانت أول امرأة من لحم ودم تحل فى قلبه المشغوف بكواكب التلفزيون. وقد نفخته بالغرور عندما قالت له وهى تصافحه:

ـ إنك فى طول رجلين معا.

واستوعبت المرحلة الثانوية جميع الأحفاد، التحق شفيق بن محمد وأمين وعلى بالقسم العلمى على حين التحقت سهام ورشاد بالقسم الأدبى. وبدأ رشاد يتكلم عن المستقبل متأثرا بما يقال فى مجلسه مع أصدقائه الرياضيين. حلم بحياة الأعيان ولكن صده عن حلمه قول الزعيم «من لا يعمل لا يأكل»، وهو زعيم قادر، وفى وسعه أن يحرم الأعيان الكسالى من لقمة العيش، فقال لأمه يوما:

ـ أزرع أرضى وأربى العجول!

فقالت كوثر:

ـ إذن اتجه إلى كلية الزراعة.

وفكر وفكر، ثم قال:

ـ الكلية الحربية أفضل . .

فتذكرت كوثر ويلات الحروب وقالت :

ـ لا ، لا تلق بنفسك إلى التهلكة !

فقال وهو يرنو إلى جدته :

ـ الأعمار بيد الله وحده .

لو تيسرت له حياة الأعيان لتزوج من سهام عند الانتهاء من الثانوية العامة ليسكت هذا الجوع الضارى الذى يغرز فى جوانحه خناجر مبللة بالشهد . وفى تلك الأيام خسر الاجتماع الأسبوعى للأسرة حرارة الشباب . ولم يعد يشهده إلا محمد ومنيرة وألفت ، ومع أن اختفاء سليمان بهجت لم يدهش أحدا إلا أنه لم ينقطع تماما ، كذلك سهام كانت تجىء فى أغلب المرات ، ولكن أين شفيق؟ أين أمين؟ أين على؟ ! وتسأل سنية المهدى فيكون الجواب إنهم فى رحلة ، سينما ، مع أصحاب . .

ـ ألا يبادلوننى الأشواق؟

فتقول منيرة :

ـ إنهم يحبونك يا ماما ولكن سرقتهم الدنيا !

غزت صداقة جديدة صدر شفيق ممثلة فى عزيز صفوت ، زميل المدرسة ، لأب بسيط موظف فى محل تجارى ، متقشف الحياة والمظهر ، لكنه متنوع الحديث ، ويعكس حديثه دأبه على غشيان دار الكتب فأثار حماس شفيق ، بل وسهام أيضا . وكانت ألفت تتابع حديثه أحيانا ، فقالت لشفيق :

ـ صديقك لا يعجبه شىء !

وقال له أبوه محمد :

ـ إنى لا أحب هذا النوع من البشر ، ولا أحب الاختلاط ، ولكنى

أنصح ولا أفرض وصايتى، والعاقل من لا يسلم برأى حتى يمتحنه.

وكان موقف محمد من العهد قد عُرف مع الزمن لشفيق وسهام، كما عُرف لأمين وعلى، فاستطاع الرجل أن يقول لشفيق أخيرا:

- الإسلام هو الدعامة والهدف.

فقال شفيق:

- وإنى لمسلم يا بابا ولكنى ناصرى أيضا!

ولم يكن عزيز صفوت ضد الناصرية ولكنه لم يكن ناصريا بالدرجة التى يرضى عنها شفيق أو سهام. أما إذا انفرد أحدهما بالآخر فى مقهى فكان حديث المرأة يستقطب جل الاهتمام. كانا يطاردان النساء بأعين جاحظة، ويقول عزيز:

- حينا بولاق حى شعبى وبه فرص لا بأس بها!

فيقول شفيق:

- إنها أزمة لا حل لها.

فيقول عزيز متهكما ببنطلونه القديم وقميصه الرمادى الرخيص:

- تلزمنا سيارة أو شقة خصوصية!

ويطير خيال شفيق مستحضرا وجوه النساء بعمارة باب اللوق ويظل فريسة للسياط والجمرات. وقد لمح مرة أمين ابن عمته فى ميدان التحرير وهو ماض مع بنت تقاربه فى السن نحو محل دندورمة فأتبعه ناظريه فى حسد. وكان أمين سعيدا جداً بصاحبته التى بدت إلى جانب طوله قصيرة. وكانت سمراء مسمسمة رشيقة. انتبه إليها كجارة، وحام حولها فى محطة الترام يوما بعد يوم حتى شجعته بابتسامة فتعارفا، وتقابلا، وتبادلا القبل كلما تيسر ذلك، فصارا حبيبين. وعرف أنها هند رشوان، ابنة ميكانيكى فى ورشة لإصلاح السيارات، فى المرحلة

الثانوية مثله، وكبرى بنات أربع ثلاثتهن فى المرحلة الابتدائية. ولم يغتبط بالمعلومات ولكنه تجاوزها فلم تفتر همته، وكان يتنفس فى جو يستبق فيه «الخاصة» فى اكتشاف جذور شعبية لهم وقاية من العواصف. أما على فنعم وحده ـ وفى سرية تامة ـ بحب ميرفت هانم. وعلم بأنها كانت زوجة أيضا لجده حامد برهان فلم يثنه ذلك عن حبه، فاختزنه ضمن هواياته كالتلفزيون والولع بالخلوات. وشجعتهما علاقتهما الحميمة بمنيرة على مواجهة الحياة فهى تشاركهما فى روح العصر بخلاف خالتهما كوثر وخالهما محمد اللذين أطلا عليهما من نافذة زمن ماض مجهول. إنهم أبناء اليوم والغد ولا ماضى لهم، وهم رعايا دولة عظمى مهيمنة على العرب وإفريقيا، حليفة لدولة عظمى، ومتحدية لدولة عظمى أخرى! انحصرت مشكلتهم الملحة فى الجنس وهى ستحل بطريقة ما فى حينها. وارتفع صوت فى الراديو ينعى أثرا من آثار الماضى، جهله الجيل الجديد، وعرفته قلة كرمز للخيانة. نعى الراديو مصطفى النحاس. لم يترك الخبر أى أثر فى الأحفاد. اتسعت عينا كوثر ومنيرة لحظات ثم شغلت كل بما بين يديها. وكانت سنية تتمشى ما بين حجرة المعيشة والفراندا فى جو أغسطس الحار فسرعان ما أسلمت نفسها إلى أقرب مقعد وشخصت بعينيها إلى الحديقة المهملة فى تأثر شديد، ثم غمغمت:

ـ آه! لكل أجل كتاب. . إلى رحمة الله ورضوانه.

وتلقت من ذكرياتها الحميمة حزنا هادئا عميقا. أما محمد فقد نبض عرق قديم فى هيكله المتجدد فرأى الماضى والحاضر والمستقبل فى لوحة رمادية تقطر أسى ورحمة. وكان ساعتها يجالس الأستاذ عبد القادر قدرى فى حجرته فرآه يطرح جسمه على مسند كرسيه ويطوق رأسه براحتيه ويصمت طويلا، ثم يردد بخشوع:

ألا يا نفس أجملي جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

ثم نظر إلى محمد بعينين مربدتين وقال :

ـ مات آخر الزعماء .

فلاذ بالصمت مشاركا فى تأثره، فقال عبد القادر :

ـ سيشيع غدا فى جنازة لا تليق بمقام راقصة درجة رابعة . .

ولكن الجنازة كانت انفجارا بركانيا غير مسبوق بإنذار . شاهدها محمد من شرفة المكتب بشارع صبرى أبو علم فذهل ولم يصدق عينيه . وتساءل :

ـ كيف حصلت هذه الأسطورة؟!

أى طوفان من جموع بلا نهاية؟ أى هتافات تتطاير بشواظ القلوب؟ أى دموع تترقرق فى الأعين؟ أى حزن يغشى الشيوخ والشباب؟ أجل، والشباب أيضا؟ وتساءل محمد :

ـ من أين جاء هؤلاء الشبان؟

كيف فرضت هذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطتها أيدى الرقباء برداء النسيان . أما زال للوفد مريدون بهذا العدد؟ هل انضم إليهم كل محب للحرية ومحروم منها؟! اضطربت الجموع فى أسى حميم عميق شامل وكأنما تنعى الدنيا والأمل الوحيد . ولمح محمد الأستاذ عبد القادر قدرى تلاطمه الأمواج وراء النعش وهو يلوح بيديه بحماس يفوق سنه، ولم يكن يتصور أنه يراه لآخر مرة، فقد اعتقل مساء اليوم نفسه فيمن اعتقل من المشيعين المتحمسين، وقضى فى الاعتقال عامين ثم توفى عقب الإفراج عنه بيومين . واختصت الجنازة بحديث طويل فى الجمعة التالية فى اجتماع الأسرة غير أن محمداً كان يدخر خبرا لا يقل عنها إثارة، فقال مخاطبا منيرة :

ـ زوجك يبنى فيللا فى المعادى!

فتجلت فى عينى منيرة نظرة إنكار، على حين تساءلت سنية:

ـ من أين له المال؟

فقال محمد وهو يغمز بعينه الباقية:

ـ إنه يؤجر شققا مفروشة استأجرها وهى خالية ـ بفضل أخيه ـ من عمارات الحراسة..

ونقل وجهه بين الوجوه ثم واصل:

ـ إنه يستأجر الشقة خالية وتتعهد الراقصة بفرشها فهما شريكان!

فقالت منيرة بازدراء:

ـ ما ننال منه مليما فوق نصف مرتبه..

فقال محمد:

ـ ويقال إن زوجته على علاقة مع المخابرات!

وانتبهوا ذات يوم والجيش يجلجل فى شوارع القاهرة. تابعت منيرة وأمين وعلى منظره المهيب من شرفة شقتهم بالعباسية. ورآه شفيق وعزيز صفوت بميدان التحرير. وسرعان ما ذاع وملأ الأسماع أن الجيش ذاهب إلى سيناء ليمنع تهديد إسرائيل لسوريا. وفى الحال تجسدت الحرب كحقيقة وشيكة الوقوع فى أخيلة الناس. وفى البيت القديم بحلوان نظرت كوثر نحو رشاد كأنما تطالبه بالعدول عن نيته فى الالتحاق بالكلية الحربية وتساءلت:

ـ ما هذه الحروب؟ كأنها أعياد موسمية!

ووجمت سنية. تذكرت حلما رأته ولم تحدث به أحدا. رأت القبر مفتوحا والأجداث داخله متراصة، وأنها كانت تنادى شخصا ما ليسده ولكن صوتها لم يسمع. همست بالإشارة إلى الحلم ولو إشارة غامضة ولكنها عدلت وآوت إلى الصمت. أما كوثر فرجعت تقول:

ـ حلوان اليوم بها مصانع حربية!

ففكرت سنية ببيتها القديم وتساءلت :

ـ هل يتحمل بيتنا الانفجارات القريبة؟

ثم واصلت بشيء من الثقة :

ـ ولكن الرئيس يعرف ما يصنع .

وفى شقة باب اللوق دار حديث الحرب بحضور محمد وألفت وشفيق وسهام وعزيز صفوت . تساءلت ألفت :

ـ ماذا يعنى إغلاق المضايق وانسحاب الجيش الدولى؟

فقال محمد بسخرية :

ـ يعنى أن سفن إسرائيل كانت تمر فى أمان منذ عشر سنوات أو منذ النصر المزعوم . .

ولكن عزيز صفوت أجابها متجاهلا سخرية محمد :

ـ إنها الحرب يا سيدتى!

فتساءل محمد :

ـ وجيشنا موحول فى اليمن؟!

فقال عزيز صفوت :

ـ نحن أقوى قوة فى الشرق الأوسط ، والرئيس لا شك فى أنه يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها . .

فكظم الرجل غيظه ، على حين قالت سهام :

ـ كلماته مليئة بالثقة والقوة!

ظن محمد لحظة أنها تصف حديث عزيز صفوت ، ولكنه سرعان ما أدرك أنها تعنى زعيمها ، ثم لعن الثلاثة فى سره . وفى العباسية لاحظ أمين قلق أمه ، فقال لها :

ـ نحن أقوياء يا ماما.

فقالت منيرة:

ـ إنى مؤمنة بذلك وهو ما يقلقنى، ليست إسرائيل بمشكلة، ولكننا إذا اخترقنا حدودها فسنجد أنفسنا وجها لوجه مع الولايات المتحدة..

فقال على:

ـ معنا الاتحاد السوفيتى!

فتساءلت:

ـ أتظنه يقدم على دمار العالم من أجلنا؟!

فقال على بإصرار:

ـ ولا الولايات المتحدة تقدم على دماره من أجل إسرائيل!

فاعترفت منيرة قائلة:

ـ الحق أنى فى غاية القلق..

وجاء سليمان بهجت فى زيارة طوارئ. كان يزورهم من حين لآخر وظلت علاقته بابنيه ودية وسلبية معا، أما منيرة فكانت تعامله معاملة رسمية. استمع لخواطرهم عن الحرب، ثم قال بنبرة العالم ببواطن الأمور:

ـ لا داعى للقلق ألبتة، وفى اعتقادى أنه لن تقوم حرب..

ثم بعد هنيهة صمت:

ـ ولكن مبالغة فى الحيطة أود أن تقيموا معنا هذه الأيام فى الزمالك فهى آمن من العباسية..

فقالت منيرة بهدوء وبرود:

ـ لك الشكر، لكننا لا ننوى هجر مسكننا ولا نجد ضرورة لذلك.

فلم يضايقها بإلحاحه، ولعله لم يتوقع قبولا من الأصل، وقال:

ـ روح البلد عالية جدًا . .

فسأله أمين:

ـ ألسنا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط؟

فأجاب بيقين:

ـ هذا مفروغ منه، ولكنى لا أتوقع حربا على الإطلاق!

وقضى الأمر. فى الساعة التاسعة من صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ دوت صفارة الإنذار وقضى الأمر. بدا كل شىء هادئا فى القاهرة عدا جموع تجمهرت حول الراديو تتلقى أنباء عن انتصارات وطنية خارقة. وتابعت منيرة الأنباء فازدادت قلقا وساءلت نفسها:

ـ ما لنا لا نسمع عن هجوم؟!

ومرق محمد وألفت إلى محطة لندن وصوت أمريكا فدهمتهما أخبار أخرى، وتساءلت ألفت:

ـ ماذا يجرى؟ أتصدق هذا؟!

فقال محمد وعواطف متضاربة تتنازع قلبه:

ـ أصدقه تماما، ما هو إلا بناء من الورق يقوم على الكفر والفساد . .

وأخيرا أعلن عن بيان سيذيعه الرئيس على الشعب. استقر الكبار فى البيوت وانتشر الشباب فى الشوارع والمقاهى. انتظر الجميع ـ ملهوفين ـ البيان متوترين بانفعالات محتدمة. منقبة أعينهم فى الظلمات عن بارقة أمل. أليس ثمة رابطة وثيقة بين لسان الرئيس والأمل؟ أجل. إنه لا ينطق إلا مرسلا باقات من الآمال المنعشة لكنه ـ ذلك المساء ـ طالعهم بوجه جديد، وصوت جديد، وروح جديدة. اندثر رجل وحل محله رجل آخر. رجل آخر يتحدث عن نكسة، يشهر إفلاسا، يندب حظا، يحنى قامته العملاقة لواقع صارم عار عن الأحلام والأمجاد، ويلتمس

مخرجا بائسا فى التنحى، مخليا مكانه الشامخ المتهدم لخليفة أراد له أن يرث تركته المثقلة باللامعقول والعار. خرقت الحقيقة الوحشية القلوب الملتاعة وتردت بأصحابها إلى قاع الهاوية، فاندفعت دموع من الأعماق الجريحة إلى الأبصار الزائغة. بكت سنية وكوثر أيضا بكت. بكت ألفت وسهام على حين تحجرت عين محمد، أما منيرة فغشيها بكاء طويل. واندفع شفيق وأمين وعلى وعزيز فى طوفان الجموع الصاخبة الغاضبة المحتجة يخوضون ظلاما دامسا، يتحدى صراخهم أزيز الطيارات وطلقات المدافع المضادة، وتطالب بالتنحى عن التنحى. وتتابعت أيام محمومة جنونية مليئة بالانفعالات والتحرشات والاعتقالات والانتحار. وبقى الرئيس وانتحر القائد، وفرغ الناس من متابعة الأحداث السياسية ليفتحوا قلوبهم لهلوسة تاريخية فريدة وليشاركوا بلذة جنونية معذبة فى حفلة زار عصرية شاملة. ماذا حصل؟ كيف حصل؟ لماذا حصل؟ وأمطرت السماء شائعات، وسخريات، ونكات، ونوادر، ودموعا. وتفشت أعراض مرض مجهول فبدا وكأنه لا شفاء منه. وشهد اجتماع الأسرة جميع الأجيال كالماضى البعيد. بدا الكبار محزونين والصغار حيارى مبهوتين. وحزنت سنية لنفسها كما حزنت لأولادها وأحفادها. تذكرت حلمها الكئيب، تذكرت حامد برهان وجهاده الصغير الذى عاش تياها به، استرقت إلى محمد نظرة إشفاق، رنت إلى الأحفاد بشوق وعطف، وأصغت إلى صوت خفى تردد فى أعماقها يطالبها بأن تيأس تماما من تجديد بيتها وحديقته. من يفكر فى هذا الترف وهو فى جوف النيران المؤججة؟ وتمتمت:

ـ يا لها من أحزان!

فقال محمد ممتعضا:

ـ المسألة أننا نسينا الله فنسينا الله..

فقال سليمان بهجت وهو قاعد جسدا بلا روح:

ـ ما هي إلا مكيدة أمريكية!

فهتف محمد:

ـ لا عذر عن الغفلة والحماقة..

ثم تنهد في غيظ:

ـ وتخرج الجموع للتمسك به بدلا من المطالبة بمحاكمته؟

ونظر صوب ابنه شفيق متسائلا:

ـ ماذا دفعك للاشتراك مع الجموع؟

فأجاب شفيق بوجوم:

ـ لا أدري بالضبط، ربما خُيِّل إليَّ أن الحياة لا يمكن أن تمضي بدونه!

وقال أمين:

ـ قلنا إن هدف العدو إقصاؤه فتمسكنا به تحديا لقرار العدو.

فضحك محمد بجفاء ساخرا:

ـ وهل يطمع العدو فيمن هو خير منه؟!

وصمت لحظات، ثم واصل:

ـ أعترف لكم بأنني سررت أيضا لبقائه، أجل، يجب أن يبقى على رأس الخراب الذي تسبب فيه، ليعاني معنا، وليتحمل مسئولية إصلاحه، هذا خير من الهرب إلى الخارج والتمتع بحياة أصحاب الملايين!

صمت شفيق وسهام وأمين وعلي ورشاد كأن الأمر لم يعد يعنيهم، أو أن «ناصريتهم» غرقت في مستنقع من الحيرة. تخبطوا في الظلام صامتين. أما سليمان بهجت فتردد طويلا قبل أن يقول:

ـ ثمة كلام عن تكوين جديد للجيش على أسس جديدة!

فأطلق محمد ضحكاته الجافة ثانية وقال:

ـ ما نحن اليوم إلا إقليم تابع للاتحاد السوفيتى، لم تنتصر إسرائيل والولايات المتحدة فقط، ولكن الاتحاد السوفيتى انتصر أيضا، أذنابه يقولون اليوم بكل قحة إن الاشتراكية أهم من سيناء . .

وغمغمت سنية فى أسى :

ـ لنا الله .

وتساءلت سهام :

ـ أينتهى الوضع على هذه الحال؟

فخُيِّل إلى سليمان بهجت أنه مطالب بإجابة، فقال :

ـ كلا طبعا! سنجد أيضا فرصة لإعادة النظر فى شئوننا، ثمة عوامل فساد كانت تنخر فى عظامنا، يقال إن الرئيس نفسه كان ضحية من ضحاياها!

فقال محمد حانقا :

ـ قال إنه مسئول عن كل شىء، لعله أول صدق ينطق به فى حياته!

ففقد سليمان بهجت بعض أعصابه وقال :

ـ أعداء النظام شامتون كأن المصيبة حلت بوطن آخر . .

فلوح محمد بيده محتجا وقال :

ـ إنهم محزونون لا شامتون، لقد بذل الجيل الماضى ما استطاع حتى وقَّت للاحتلال البريطانى وقتا ثم جاء الأبطال يحلمون بإنشاء إمبراطورية فانتهى سعيهم باستيراد احتلال جديد مارسته أصغر وأحدث دولة فى العالم، هى النتيجة الحتمية للجهل والغرور والفساد والاستبداد، واليوم تفصح الوجوه فلن ترى توازنا واستقرارا إلا عند الشيوعيين!

ـ لسنا شيوعيين على أى حال .

ـ ولكنكم ذيول لهم، لو صدقتم فى قتال إسرائيل عشر صدقكم فى قتال المسلمين لكتب لكم النصر . .

فقال سليمان بضيق :

ـ الشعب الكادح يعرف بغريزته كيف يهتدى إلى رجله . .

فجاوز محمد حلمه قائلا :

ـ لا تحدثنى عن الشعب الكادح، وحدثنى عن الشقق المفروشة!

اصفرّ وجه سليمان وأفصحت عيناه عما ينذر بإفساد اللقاء كله غير أن سنية قالت بصوت مسموع :

ـ لا . . لا أسمح بهذا، نحن هنا أسرة ولا مكان بيننا لمعركة . .

وعلت الكآبة المجلس والمأدبة، ولم ير سليمان بهجت بعدها فى البيت القديم، لا بسبب نزاعه مع محمد فقط، ولكن لأن التحقيقات أدانت فيمن أدانت زوجته «زاهية» مثبتة استغلالها لنفوذها المستمد من المخابرات لإثراء غير مشروع فقُضى عليها بالسجن خمس سنوات. وأصابت ضربات التطهير أخا سليمان الضابط فقُضى عليه بالسجن أيضا، ووجد سليمان نفسه وحيدا ضعيفا بلا سند مطاردا بسوء السمعة مما اضطره إلى تقديم استقالته. وفى ذلك الوقت فرغ من بناء فيللا المعادى فأقام بها وحده منتظرا عودة زاهية. وأنعش أمل قلب سنية الجريح فتصورت أن الأحداث تمهد لعودة العلاقة بين سليمان ومنيرة إلى سابق عهدها، ولكن منيرة قالت لأمها بصدق :

ـ لقد انتهيت منه تماما!

ولم يختلف هو عنها فى ذلك فوهبت منيرة حياتها كلها للعمل ولابنيها. وقد ترقت مفتشة وازدادت جدية فى حياتها، وإذا بها تحج بصحبة محمد ذات عام، وتواظب بعد ذلك على الفرائض مثل كوثر منتمية إلى أسلوب أمها فى التدين لا أسلوب محمد، محافظة فى

الوقت نفسه على «ناصريتها» ملبية نداء العاطفة فى ذلك أكثر من العقل، ورافضة التخلى عنه فى سوء حظه، قالت:

- ما هو إلا ضحية للاستعمار العالمى!

وسارعت إليها الكهولة مثل كوثر وأكثر، ولكنها - من حسن الحظ - لم تلحظ تغير وجهها الجميل كما لاحظه الآخرون، كما أنها لم تعد تستعمل أى أداة من أدوات الزينة. ووقعت مظاهرات الطلبة مفاجأة لها كما كانت مفاجأة لكثيرين. إنها أول تحد داخلى يواجه الزعيم من أخلص أبناء قبيلته. تردد الهتاف بسقوطه، وتطايرت فى الجو السخريات المسجوعة. وتاقت الأنفس لحكم الشعب ولمعرفة الماضى على حقيقته. وجدت منيرة نفسها ممزقة، ففى جانب يتظاهر أبناؤها، وفى الجانب الآخر يقف زعيمها. وعجبت لموقف أمين وعلى كما عجبت لموقف شفيق وسهام. وسألت وهى تقلب عينيها فى وجهى ابنيها:

- أليس هو الرجل الذى ثرتم لإبقائه؟

فقال أمين مرددا ما أفعم رأسه:

- يجب أن يكون الدور الأول للشعب!

- أتريد رجلا آخر؟

فهزَّ منكبيه قائلا:

- لا يوجد رجل آخر!

وتساءل على فى حيرة:

- ما جدوى التحقيق؟!

فسألت بإلحاح:

- أترومون تصفية الناصرية؟

فأجاب أمين:

ـ لسنا رافضين، ولكننا غير راضين!

ـ إنكم محيرون!

فقال على ضاحكا:

ـ نحن حيارى!

وكانت الجامعة تستقبلهم واحدا بعد آخر. اثنان منهما نالا ما أرادا فالتحق رشاد بالكلية الحربية رغم معارضة كوثر، والتحقت سهام بكلية الآداب مستهدفة قسم اللغة الإنجليزية. أما شفيق وأمين فقد أرادا الطب ولكن التنسيق حولهما إلى الهندسة، وأراد على الهندسة فمضى إلى كلية العلوم. وفى الجامعة دهمهم جو فائر بالبلبلة، صاخب بالأصوات الجهيرة المتضاربة. الدين.. الدين.. الدين، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوراة فالحرب يجب أن تكون بالقرآن. الماركسية.. الماركسية.. الماركسية، هى التى تقتلع مجتمعا متهرئا من جذوره الخرافية لتشيد فوق أنقاضه مجتمعا علميا عصريا، العلم.. العلم.. العلم.. ما انتصرت إسرائيل إلا بالتكنولوجيا، وأملنا الحقيقى فى العلم والتكنولوجيا. الديمقراطية.. الديمقراطية.. الديمقراطية، فما خسف بنا الأرض إلا الاستبداد. الناصرية.. الناصرية.. الناصرية، وما عليها إلا أن تخلص لمبادئها حتى نخلص لها. دوامة لا تسكن ولا تهدأ، والقلوب ثقيلة، والأنفس مريرة، والأفق متجهم، والشهوات مكبوتة، وأحلام اليقظة مرهقة. وقال شفيق لأبيه ذات مساء:

ـ نحن جيل من الضحايا، إنى أصدق من يقول ذلك..

فسأله محمد:

ـ ضحايا لمن؟

ـ لجميع من سبقنا!

فتغيظ محمد وسأله:

ـ ماذا تعرف عن مصر ما قبل الثورة؟

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف أريد أن أكون طبيبا فتأمرنى الحكومة أن أكون مهندسا؟

فقال محمد بامتعاض :

ـ اعرف وطنك، إليك مكتبتى فهى تحت أمرك . .

وعرف شفيق صديقه عزيز صفوت أكثر فأدرك أنه ماركسى . لم يفطن لذلك من قبل؛ لقلة معلوماته من ناحية، ولتركيز عزيز على نقد أوضاع شتى دون كشف النقاب عن هويته من ناحية أخرى . يلاحظ الآن أن الهزيمة لم تنل منه عشر معشار ما نالت من الآخرين فتذكر قول أبيه عن «توازن الشيوعيين»، ونظر إلى عزيز صفوت نظرة غريبة وسأله وهما يسيران بلا هدف وسط المدينة :

ـ لعلك ممن يفضلون الاشتراكية على سيناء؟!

فارتسمت ابتسامة فى وجه عزيز الشاحب، وقال :

ـ التوجه نحو الاشتراكية هو المكسب الحقيقى لثورة يوليو . .

فقال شفيق وهو يرمقه باستغراب :

ـ أنت ماركسى!

وراح الشاب يتحدث عن الهدم والبناء من جديد ففتنت الفوضى خيال شفيق واستجابت لها نفسه الحائرة . غير أن عزيز انقض على المقدسات بسخرية فاجرة لم يتوقعها شفيق فأحدثت عنده رد فعل مفاجئ رغم خفة تدينه . وبدافع من العناد والغضب والرغبة فى الجدل والاحتجاج على التطرف عارض آراء صاحبه وكأنه صاحب موقف بالرغم من أنه لم يعرف من المواقف إلا الناصرية التى زعزعت الهزيمة أركانها . ولما شبع من الجدل قال :

ـ إنى فى حاجة شديدة إلى امرأة!

فقال عزيز ضاحكا:

ـ توجد فرصة حسنة.

اعترف له بأنه يحوز صديقة، وأن لها أختا قد يجد فيها مطلبه. وزاده بهما علما فقال إنها من بنات المدارس، وإن أمهما أرملة فقيرة تتعيش من شراء الفاكهة نصف الفاسدة بأبخس الأثمان وتبيعها للفقراء. وإنها لم تضن على ابنتيها بالتعليم، ولكن الفتاتين اعتمدتا على نفسيهما فى الاستمرار فيه بلا موافقة أو رفض من ناحية الأم. قال عزيز صفوت:

ـ لى حجرة مفروشة فوق السطح، والتكاليف معقولة.

وذهب به ذات يوم إلى سطح البيت بعطفة بهان ببولاق. اخترق حوارى كئيبة لم يألفها من قبل، ولم يتنفس بارتياح إلا فوق السطح، ومد بصره جنوبا متجاوزا بضعة أسطح فرأى النيل يجرى فى شموخه ورأى شاطئه الآخر المجلّل بالأشجار والقصور والعمائر فى الزمالك. ومضى به عزيز إلى الحجرة المفروشة فدهمه منظرها بالوحشة! طولها أربعة أمتار وعرضها متران، على يسار الداخل كنبة وفى الجدار المواجه للداخل كوة وثمة مسمار مغروز فى الجدار الأيمن وأرضها مغطاة ببلاط معصرانى أغبر اللون. وجم شفيق ولكن الآخر لم يلق إليه بالا، وما لبثت أن جاءت زكية محمدين فى بنطلون رمادى وقميص أزرق كاشف عن أعلى الصدر، مفروقة الشعر، مقبولة القسمات والهيئة، مفصلة الحمولات. تم التعارف والرضا، ولدى ذهاب عزيز أحبها حب الجائع المحروم. تحدثت بطلاقة وعفوية كأنها فى بيتها فخامره شىء من الأسف، ولكنه ضمها إلى قلبه بقوة واستماتة. وتواصلت العلاقة بترحيب وسعادة من ناحيته كأنما بلغ بها أقصى ما يتمنى. وحفظ لعزيز صفوت جميله، ولكن ذلك لم يمنعه من معاندته كلما تهجم على الإسلام، أجل، وجد نفسه يدافع عن الإسلام كأنه من تياره. ولاحظ

أمرا أزعجه. قرأ أحيانا فى عينى أخته سهام إعجابا بآراء عزيز صفوت.
انفرد بها ذات مساء وسألها:

- لعلك لا تدرين أنه ماركسى؟

فحدجته بنظرة محايدة ولم تجد ما تقوله فسألها:

- أتحبذين آراءه الشيوعية؟

فقالت بعد تردد:

- المسألة أنها جديدة ومثيرة!

- هل فرغت من الناصرية؟

- لا أظن..

- هل هان عليك الإسلام؟

فتفكرت قليلا، ثم قالت:

- غير معقول.

فقال وكأنما يصف نفسه:

- إنك لا تدرين لنفسك رأسا من رجلين..

وثمة مفاجأة أخرى كانت ترصد فرصتها، فما كاد رشاد يخطر فى بزته الرسمية كطالب فى الكلية الحربية حتى صارح أمه وجدته قائلا:

- آن لى أن أعلن خطبتى لسهام.

وتحمست كوثر لذلك بدافع لم تتبينه بل تمنت أن يتم الزواج فى أقرب وقت، ورحبت بذلك سنية أيضا فحدثت به محمد وألفت. غير أن ألفت عندما فاتحت سهام فى الموضوع قالت الفتاة:

- آسفة!

فاستقبطت أنظار ألفت ومحمد وشفيق، وسألتها ألفت:

- أتريدين مزيدا من التأجيل؟

فقالت بصراحة :

ـ لا أريدها على الإطلاق!

ذهل الجميع وتبادلوا نظرات مستنكرة، وقال محمد :

ـ ولكنك كنت موافقة طوال الوقت!

فقالت بهدوء وتصميم :

ـ الأمر كله كان عبثا، ثم تبين لى أننى لا يمكن أن أوافق . .

هتفت ألفت :

ـ رشاد شاب ممتاز وغنى ووسيم وابن عمتك، فكرى بما سيحدثه الرفض!

فقالت بتصميم أشد :

ـ أى شىء أهون من الكذب فى مصير حياة .

فقال محمد متأوها :

ـ إنى رجل مؤمن، والمؤمن يؤمن بالزواج أيضا، ولو كان لى مال لزوجت شفيق وهو رجل فكيف بالأنثى؟!

فقالت بصوت متهدج :

ـ لا أريد يا بابا . .

غلبه الإشفاق . تنهد قائلا :

ـ الأمر لله، سأسلم بما أكره، ولكنى حزين، على نفسى وعليك، على الأيام، كل ما حاق بنا، لقد ماتت جاذبية الأرض وتطايرت الأشياء فى الفضاء!

وبطبيعته التى تؤثر المواجهة سافر إلى حلوان . جلس فى حجرة المعيشة بين أمه وكوثر ورشاد وقال :

ـ إنى حزين يحمل رسالة حزينة!

وصب عليهم الحقيقة واضعا نفسه تحت شلالها كأنه ضحية ـ مثلهم ـ من ضحاياها. وقال:

ـ لم يعد لنا من سلطان على أولادنا!

جفت حيوية أرواحهم. تلقى كل منهم لطمة داهمة. ولم يعلق أحد بكلمة فتفشى الفتور حتى ذهب محمد. وسرعان ما بكت كوثر وهى تقول:

ـ ابنى خير شباب الأسرة!

فقالت لها سنية:

ـ سيغنيك بمن هى خير منها.

أما رشاد فمضى من توه إلى شقة باب اللوق، فأخلى ما بينه وبين سهام، وسألها:

ـ ماذا غيّرك بعد أن سمحتَ لى بأن أحبك وأعقد بك آمالى؟

فقالت سهام بصوت خافت:

ـ أعترف بخطئى وأسفى، إنك شاب رائع، ولكن لا حيلة لى..

فازداد تعاسة وسألها:

ـ أيوجد شخص آخر؟

فأجابت بوضوح:

ـ كلا.

فصمت قليلا، ثم قال:

ـ إذا كان الأمر كذلك فلم لا نجرب حظنا؟

فقالت بحزن:

ـ آسفة، انس الموضوع كله وسامحنى إن أمكن..

وانفرد محمد بألفت وسألها:

ـ هل يوجد شخص آخر؟

فقالت :

ـ أبدا، إنها لا تخفى عنى سرا .

فهتف الرجل :

ـ هذا أدهى وأمر .

ولكن كان ثمة «آخر» . غير أن سهام لم تشر إليه لأنه لم يعترف بعد، وقد تكون واهمة . فمما لا شك فيه أن ميلا خفيا دفعها باستمرار نحو عزيز صفوت! إنه يراسلها بنظرات خاصة أبلغ من أى لسان . مضى زحفه وئيدا متواصلا حتى تفتح قلبها للحب، وعند ذاك فقط عرفت أنه شيء آخر غير الميل الذى وجدته ذات يوم نحو رشاد . وكان رشاد أقوى جسما، وأجمل صورة إلى وزنه المالى المعترف به . عزيز نحيل، شاحب الوجه، ذو ملامح شعبية ومظهر فقير، ولكن سحرها نور يشع من عينيه، وجدة أفكاره وحيوية روحه وذكاؤه البين . والحق أن عزيز ومض فى رأس ألفت دقيقة، ولكنها سرعان ما استبعدته كفرض يتعذر قبوله . . كان يزور شفيق كثيرا ويرى سهام كثيرا، وفكرة حجب ابنتها لم تخطر لها ببال، وكانت هى تجالسهم أحيانا وكذلك محمد . ثم ألم يسلم محمد نفسه بضرورة إلحاقها بالجامعة؟ قنع بضرب المثل الإسلامى لهم فى حياته اليومية وحثهم على تأدية الفرائض وما يتسع له وقتهم من ثقافة دينية، مسلما بعد ذلك أمره لله . لعل أمين ـ ابن منيرة ـ كان الأوحد فى الأسرة الذى شمت برشاد فى محنته لسابق شغفه بسهام . وظن أن فرصة طيبة تسنح له من جديد فعبر فوق علاقته بهند رشوان وأكثر من التردد على مسكن خاله محمد، وراح يتودد إلى سهام، ولكنه شعر منذ أول خطوة بأنها لا تشجعه ألبتة فلم يتماد فى تجربته وقال لنفسه ساخطا :

ـ ستكون صورة طبق الأصل من ميرفت هانم!

وندم على شروعه فى خيانة هند رشوان فكفر عن زلته بالتأكيد على إظهار حبه لها وتعلقه بها. وبالفعل دخل طورا جديدا من علاقته اتسم بالحرارة والجدية. ومضى يفكر فى المستقبل، وفى العقبات التى تعترض طريق الزواج مثل اختلاف مستوى الأسرتين، والانتظار الطويل الذى لا مفر منه، وتكاليف الزواج التى لا مفر منها أيضا. وعند ذاك تذكر ما يقال عن ثراء أبيه، ولكنه لم ينس «زاهية» التى ينتظر خروجها من السجن، والتى يقال إنها شريكته بل إنها القوة الحقيقية وراء استثماراته. بالإضافة إلى ذلك فإن نفوذ عمه انتهى إلى الأبد بدخوله السجن. أما عن دخل أسرته الخاص فإنه بالكاد ييسر لها معيشة عادية أبعد ما تكون عن الترف. وكم ود أن يخلو بهند رشوان لعله يروح عن أعصابه بطريقة فعالة وآمنة، ولكن أقصى ما أتيح له أن يختلس القبلات واللمسات فى شوارع العباسية الجانبية. ولم يخل فى حياته العامة عن عاطفية أيضا فكان أقل الأحفاد تمردا على الناصرية، وأعجب بأمه لتمسكها بها، وربما من أجل ذلك شعر بمأساة أمه الخاصة أكثر من أخيه على، وآنست منيرة منه ذلك فاختارته بخيالها، وأيضا عقب رجوعها من الحج شاركها فى الاهتمام بدينه متبعا أسلوبها متحاشيا أسلوب خاله محمد. ولاحظ خاله محمد رجوعه إلى ناصريته فقال له:

ـ إنى لا أفهمك يا أمين!

فقال أمين:

ـ معذرة، لا أستطيع أن أنسى الخلاص من النظام الملكى، الإصلاح الزراعى، تمصير الاقتصاد، التأميم، التعليم المجانى، مكاسب العمال والفلاحين، فلا الهزيمة ولا الفساد ولا الاستبداد سينسينى ذلك!

رغم ذلك لم يعد حماسه بالحماس الذى كان، لكنه كان شيئا ما بخلاف أخيه على. على خسر كل شيء وخسر نفسه أيضا. طحنته الخيبة، جفت ينابيع أحلامه، حدس طنين العداوة حتى فى الخلوات وفى الليالى القمرية. وكما صمم قديما ألا يقتنى قطة عقب فجيعته بموت قطة محبوبة فقد عاهد الله على تجنب المذاهب والزعامات عقب الهزيمة مصمما على الرفض وحده. وحزنت منيرة على حاله فسألته مرة:

ـ ماذا تحلم عن المستقبل؟

فقال بعصبية:

ـ ليتنى أجد عملا فى بلد أفضل!

فسألته بعتاب:

ـ وتهجر وطنك؟

فقال بوضوح وتأكيد:

ـ فى ألف داهية!

فقالت محتجة:

ـ ليس فى أسرتنا تفكير من هذا النوع!

فقال ساخرا:

ـ لنا فى السجن عم وزوجة أب!

وفى تلك الأيام تُوفى الأستاذ حسن علما آخر أزواج ميرفت هانم. اشترك على فى تشييع جنازته وخياله يحوم حول أرملته. خفق قلبه المحروم ونشط خياله الذى لم تبرحه المرأة مذ غزته فى بيت خاله. وتبلورت وراء إرادته اندفاعة متربصة مغامرة. ولأنه يعيش تحت مظلة من الاستهتار فقد اكتسب سلوكه جرأة غير معهودة. راح يعد الأيام حتى وافى يوم الأربعين، ثم سافر يوم الجمعة التالى إلى حلوان مساء؛ اتقاء للأعين. ودق جرس الشقة التى اتخذ جده حامد برهان منها عشا

لعشقه وزواجه. وعرفته ميرفت هانم من أول نظرة فى بنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض المفتوح الطاقة لاستقبال نسمات الربيع. دهشت، ولكنها رحبت به قائلة:

ـ أهلا..

فتبعها إلى حجرة الاستقبال وهو من الانفعال لا يرى. وجلس قائلا:

ـ جئت لأعزيك ولو متأخرا..

فشكرته وهى تتفرس فى وجهه بارتياب. كانت ترتدى فستانا أسود يكشف عن ذراعيها وأكثر ساقيها، ولم يمنعها الحداد من العناية بشعرها ووجهها فشع منها ذاك النور الباهر. ربما بدت أصغر من سنها، ولكن العين لا تخطئ كهولتها خاصة كراميش الفم وما تحت العينين، ولكنه كان ينشد هذه الصورة دون غيرها. وتذكرت هى نظراته التى استوعبتها فى أكثر من زيارة لبيت ألفت فلم تشك فى أن وراء الزيارة ما وراءها. أيمكن ذلك حقا؟! وما عسى أن تصنع به؟ ودل ترحيبها به وتقديمها القهوة على أنها تترك الباب مواربا حتى ترى ما يجىء به الغيب. وكان من ناحيته عازما على ألا يتجاوز التمهيد، فنظر إلى الصالون المموه بالطلاء الذهبى وقال:

ـ ما أجمل ذوقك!

فقالت باسمة:

ـ إنه يشبه طاقم مامتك.

وكان لمح على الجدار صورة المرحوم مكللة بغلالة سوداء فلم يدر ماذا يقول. ولم تشأ المرأة أن تزيد من حرجه فسألته:

ـ هل زرت جدتك؟

فأجاب مرتبكا:

ـ كلا .

ـ لعل أحدا لمحك؟

ـ كلا . . نور الطريق لا يسمح بذلك .

ـ إنى أشكرك على أى حال .

عند ذاك قام وهو يتساءل :

ـ هل تسمحين لى بالزيارة عند سنوح الفرصة؟

فقالت باسمة :

ـ إنه بيتك بغير استئذان . .

رجع من حلوان وهو يقول لنفسه : «إنها ذكية ولا مانع لديها» . وشغل بعد ذلك بامتحان آخر العام فى الكلية ، ثم استقبل عطلته الصيفية . وبلا تردد كرر الزيارة بجرأته المقتحمة ، وجلس وهو يقول :

ـ منعنى الامتحان من زيارتك!

كأن الزيارة واجب غير قابل للمناقشة . وسألها وهو يلاحقها بنظرات محمومة :

ـ وحدك دائما؟

فأجابت بأسى :

ـ تقريبا . .

وأفصحت نظراته عن رغبته بقوة لا يفى بها كلام . وقال لنفسه : إنها تفهمنى وتنتظر . وقال أيضا : لو كذب ظنى فلن أخسر من الدنيا أكثر مما خسرت . ولما جاءته بقدح ليمون مد يده فقبض على ساعدها . حدجته بنظرة متسائلة وهى مقطبة فشدها إليه بقوة ثم أحاطها بذراعيه . وسألته كالمحتجة :

ـ أأنت فى وعيك؟

فأجاب وهو ينهض بطوله الفارع :

ـ لم أفقده كله بعد .

هكذا شرعت ميرفت هانم فى غرامها الأخير . وسجلت تلك الليلة أول كلمة فى صفحته الموردة ، وحقق به على حلما قديما يائسا ، أما ميرفت فقدمت على مذبحة ولعها العارم بالحياة والشباب . والعجب أنه سعد مثلما سعدت وأكثر . والأعجب أن سيطرتها عليه فاقت سيطرته عليها ، فوفقت دائما إلى نفخه بالخيلاء والأريحية والجنون حتى باتت المستقر الوحيد فى الدنيا الذى يجد فيه ذاته وشفاءه وخلوده . وكانت سهام فى نفس الوقت يتفتح لها طريق آخر . امتعضت نفسها المتطلعة عندما علمت باضطرار عزيز صفوت إلى الانقطاع عن الدراسة بعد الثانوية العامة ليرتزق من مراسلة بعض الجرائد العربية . وكان عزيز قد يئس تماما من جذب شفيق إلى فكره ، بيد أنه ـ وهو بسبيل إقناعه ـ دفعه وهو لا يدرى إلى حضن الدين فلحق بأبيه . ولكنه حقق نجاحا عفويا مع سهام وهو ما لم يركز عليه من أول الأمر . عند ذاك انساق إليها بعقله وقلبه معا فباتت غاية حياته . وزارها فى الكلية ودعاها إلى لقاءات قاصرة عليهما دون شفيق ، فلما وافقت تلقى من الحياة بركة صافية . وناقشها برفق كمبتدئة ، ولكنه لم يصبر مع عواطفه المتأججة فقال لها :

ـ إنى أحبك ، من قديم ، ربما من أول يوم . .

وجد فى صمتها المحفوف بالرضا استجابة أخطر من استجابتها العقلية ، ولعلها كانت الاستجابة الصادقة الأصيلة القائمة على أساس مكين حقّا . قالت له :

ـ إنى آسفة لانقطاعك عن الدراسة .

فتساءل باستهانة :

ـ هل تعطيك الجامعة شيئا يعتبر الحرمان منه خسارة؟

ثم ضغط على راحتها بحنان وقال :

ـ لن أنقطع عن الثقافة أبدا .

وتساءل عما يدور برأسها من هموم المستقبل فرآه فى ضوء ساطع ، وصارحها بما رأى كالشهادة الجامعية وطبقة الأسرة والفقر ، فقالت :

ـ لا يهمنى هذا كله !

فقال لها :

ـ إنها مشكلات حقيقية ، ولكن فى العالم الذى يؤمن بها ، فإذا كفرنا بهذا العالم فلا وجود ثمة لها . .

وتحمست بدافع حبها لتقويض ذلك العالم المغضوب عليه ، ولكنها ترنحت على الحافة وهى تشعر بحاجتها إلى المزيد من القوة لتحقق واقعا جديدا . ومع أن جو أسرتها عوّدها على الصدق والصراحة إلا أنها أسدلت على أسرارها الجديدة ستارا لما تعرفه جيدا عن أبيها ، بل وأخيها الذى انضم إلى الأب من خلال عناده الجدلى قبل أى شىء آخر ، وقالت لنفسها :

ـ فلنؤجل المعارك إلى حينها !

ولكنها لم تستطع أن تعرف خواطرها عن «المستقبل» فسألت عزيز يوما وهما جالسان فى الجنفواز :

ـ ألديك صورة واضحة عن المستقبل؟

فقال بهدوء لم يخل من امتعاض :

ـ عندما تكفين عن الاكتراث بهذه الشواغل أعرف أنك وصلت !

فصممت على أن تحوز ثقته مهما جشّمها ذلك من متاعب . وكان يجد فى زينات محمدين ـ أخت زكية صديقة شفيق ـ مفرجا عن توترات شبابه لينعم بصفاء الحب مع سهام غير أن زينات فاجأته ذات يوم قائلة :

ـ سأتزوج من تاجر ليبى وأسافر معه إلى ليبيا .

فقال لها قبل أن يفيق من المفاجأة :

ـ سيتاجر بك هناك!

فقالت دون مبالاة :

ـ أربح لى أن أكون سلعة هناك .

واختفت من حياته مخلفة أعصابه فى مهب الريح . واستأثر شفيق وزكية بحجرة السطح . والتحقت زكية بكلية التجارة ، وتوثقت العلاقة بينهما ملتحمة بالألفة وشىء من الاحترام ، حتى قال له عزيز صفوت :

ـ لم تعد علاقة عابرة ، على الأقل من ناحيتك . .

فابتسم شفيق وتساءل :

ـ ألا تخشى أن تلحق بأختها ذات يوم؟

ـ فرض محتمل . .

فقال شفيق متنهدا :

ـ نحن نتدهور مثل مرافقنا العامة . .

ـ إنهم يستعدون للحرب . .

فسأله باهتمام :

ـ هل نقدم حقًا على هذه المغامرة؟

ضحك عزيز ضحكة غامضة ، ثم قال بيقين كأنه أحد أعضاء هيئة أركان الحرب :

ـ فى اللحظة الأولى سوف ينقض الطيران الإسرائيلى على مرافق الماء والكهرباء والمواصلات تاركا مهمة تصفية النظام للملايين من سكان القاهرة!

فتساءل شفيق بقنوط :

ـ إذن لماذا ننفق الآلاف من الملايين؟

ـ لا حيلة لنا فى ذلك!

ـ والحل؟

فقال عزيز باسما:

ـ الحل فى الداخل!

فقال شفيق بمرارة:

ـ الحق أن مصر محتلة بالروس قبل الإسرائيليين!

فقطب عزيز قائلا:

ـ الإسرائيليون يأخذون، أما الروس فيعطون ولولاهم لانتهى كل شىء!

صمت شفيق بفم ملىء بالمرارة، ثم قال وكأنما يخاطب نفسه:

ـ تكون كارثة لو لحقت زكية بأختها!

وسبقهم رشاد نعمان الرشيدى ـ ابن كوثر ـ إلى خوض الحياة العملية وألحق بسلاح المدفعية. ولما بلغ سن الرشد تسلم تركته حائزا درجة من الثراء لا بأس بها. وقالت له كوثر:

ـ دعنى أخطب لك!

فقال ضاحكا:

ـ لا أتزوج على الطريقة القديمة.

فقالت بلهفة:

ـ تزوج بالطريقة التى ترضيك.

لم يكن جرحه قد اندمل تماما، فقال:

ـ صبرك، ليس فى الجبهة عرائس.

وأفزعتها كلمة «الجبهة» التى علمت بها لأول مرة ونظرت صوب سنية، فقال لها:

ـ الجميع هناك، والأعمار بيد الله.

فتساءلت كوثر فى كآبة:

ـ والاستنزاف والردع؟!

فقالت سنية:

ـ قلبى يحدثنى بخير والله حارسه.

تظاهرت بالشجاعة لتبثها فى روح كوثر، ولكن حناياها درت إشفاقا على الحفيد الذى تحبه أكثر من الجميع. وصدقت نيتها على تلاوة آية الكرسى عقب صلاة العشاء، ليلة بعد أخرى، لتحل به ورفاقه بركتها. وكم انتظرت بلوغه سن الرشد لتفضى إليه بآمالها عن البيت والحديقة والمدفن، وها هو ذا يبلغه وهو فى الجبهة فكيف يطاوعها لسانها على الكلام؟! دائما وأبدا يعترضها الشوك وهى تقطف الوردة. بل هى أسرة لا يهادنها سوء الحظ أبدا. كوثر، منيرة، محمد، رشاد وسهام، وقبل هؤلاء تطل من أفق الذكريات مأساة حامد برهان، فمتى تدركنا العناية الإلهية؟! والعجيب بعد ذلك أن تولى شخصها كل عناية ورعاية كأنما تتحدى الشيخوخة الزاحفة. إنها تتردد على عيادات الأطباء فى مواعيد منتظمة، تروى عطشها من مياه حلوان المعدنية، تملأ رئتيها بالهواء الجاف المنعش، وتطارد الشيب بالحناء متوجة رأسها دائما بهذا اللون الأرجوانى المهيب. وإذا لمحت على شفاه الأبناء ابتسامة قالت:

ـ علينا أن نعد أنفسنا للصلاة ونحن على خير حال!

وكم من مرة تنتقد فيها إهمال كوثر ومحمد ومنيرة الذى جعل من رءوسهم مرتعا للشيب يجول فيه ويصول دون معارض. وقالت لها أم سيد ذات مساء وهى راجعة من السوق:

ـ رأيت فى العتمة سى على ابن ست منيرة داخلا عمارة ست ميرفت!

فقطبت ثم قالت :

ـ لعله يزور زميلا له .

ثم مخاطبة نفسها :

ـ لم يفكر فى زيارة جدته!

وشكته إلى منيرة فى لقاء الجمعة ، وسألته منيرة بعد العشاء فى شقتهما بالعباسية :

ـ أذهبت أول أمس حقًّا إلى عمارة ميرفت هانم بحلوان؟

انحشر قلبه فى حلقه وظن أنه انفضح ، غير أن منيرة أنقذته وهى لا تدرى ، فواصلت :

ـ لا تهمنى الزيارة فى ذاتها فلعلك زرت صديقا ، ولكن أما كان الواجب أن تمر بجدتك؟ عليك أن تزورها لتخفف من حزنها!

فازدرد ريقه قائلا :

ـ لم يتسع الوقت!

ثم بصراحة خشنة :

ـ والبيت القديم ممل!

فقالت بعتاب :

ـ لك جدة مدهشة لا تمل!

فلاذ بالصمت مستوصيا بمزيد من الحذر . ولما رجع رشاد لقضاء عطلته الدورية أثارت القاهرة انفعاله . هذه المدينة الخالدة التى تعيش بمعزل عن الزمان! وصمم من بادئ الأمر على ألا يشير بحرف إلى حياة الجبهة الحقيقية . وبعد العناق قال :

ـ ليست الجبهة كما تتصورون ، ما هى إلا مبالغات وأوهام!

احتفظ بمعاناته فى سرية مقدسة ، كما دفن زلازل الانفجارات فى

أعماق ذاته. ومرارة الهزيمة الموروثة عن غيرهم، والمسئولية التى تنوء بمناكبهم عما حدث وعما يحدث وعما سيحدث. لذلك قذفت به الجبهة فى أعماق هموم عامة عاش أكثر عمره فى هامشها، ولكن شد ما تبدو القاهرة لا مبالية معربدة متمردة! وقال لأمه دون تمهيد:

ـ ماما، إنى أفكر جادا فى الزواج!

فهتفت كوثر:

ـ ما أسعدنى بسماع ذلك!

وقالت سنية بمرح:

ـ رأيت ولا شك ما غيّر فكرك!

فقال بغموض:

ـ فى المرة القادمة تتضح الأمور!

الحق أنه فى ليالى المعاناة وردت عليه فكرة الزواج كإلهام مشرق. ووثبت إلى إرادته عندما رأى أخت زميل له فى القاهرة. ولم يكن حبا من أول نظرة، وجدها مقبولة وكفى، ولم يكن برئ تماما من سهام. وأنفق العطلة فى التسكع مع الزملاء. وزار خاله وخالته أيضا. وهناك صارحهم بما أخفاه عن أمه وجدته. وجد منيرة ملهوفة على المصير أكثر من الجميع، ولكنه لم يرو لها ظمأ. وقال رشاد بعتاب:

ـ القاهرة مشغولة بذاتها!

فسأله على:

ـ ماذا تتوقع غير ذلك؟

وقالت منيرة فى حيرة:

ـ الناس إما يحاربون أو يسالمون، أما نحن فقد اخترعنا حالا جديدة غير مسبوقة بنظير!

وفي بيت خاله محمد ارتفعت درجة الغليان درجات أكثر . هو أيضا ثمل بالأسى عندما رأى سهام وهاجت شجونه . ولما عاملته برقة وأدب وتحفظ كأن لم يكن بينهما شيء حزن أكثر . وقالت له :

ـ نتمنى لك السلامة .

فلم يحدث له أى سرور . أما خاله محمد فقد لخص الموقف من وجهة نظره قائلا :

ـ إنه يضحي كل يوم بأرواح بريئة ليدارى بها عاره !

فسأله :

ـ هل عندك حل يا خالى؟

فقال محمد :

ـ ولا حل غيره . اسمه الحل الإسلامى !

وشعر لأول مرة بأن شفيق منحاز إلى رؤية والده فأدرك مدى التغير الزاحف على آله فى غيبته عنهم ما بين الكلية والجبهة . لكنه لم يحزر مدى الانقلاب الذى حل بسهام . إنها الآن مؤمنة بالثورة المطلقة . أجل ، لعب قلبها الدور الأول فى ذلك ، كما لعب العناد الجدلى دوره فى انقلاب شفيق ، ولكن النتيجة واحدة . وكانت تخوض عاصفة عنيفة وتشعر فى الوقت ذاته بأنها ليست إلا بداية . وما تدرى إلا وعزيز صفوت يقول لها :

ـ إنى أدعوك إلى حجرتى بدلا من التسكع !

وجمت ، وتورد وجهها الجميل ، وتمتمت :

ـ حجرتك !

فقال بعجلة :

ـ سحبت اقتراحى !

تساءلت عما يعنيه انسحابه؟ ارتاحت له كقرار، ولكنها انسحقت تحت وطأة القلق. دائما تلهث وراءه فحتى متى؟!

أما هو فقال بهدوء وحنان:

- ما زلت أنت أنت، سهام كريمة المربية الفاضلة منيرة وحامد برهان.

فقالت بعصبية:

- كلا، لا تسئ بى الظن، ولكن هذا لا يعنى..

وتوقفت عن الكلام، فقال:

- هذا يعنى أنك لم تتخطى المرحلة بعد.

فتساءلت:

- لم العجلة؟ لا توجد فى طريقنا عقبة حقيقية!

فتساءل باسما:

- ولم الصبر؟!

ها هو ذا يحاصرها فى ركن مستندا إلى امتلاكه قلبها حتى جذوره. ولدى اللقاء التالى تصرف تصرفا غاية فى الشذوذ، ولكن بطمأنينة وثقة كاملتين. مضى بها نحو طريق جديد ولما سألته عن وجهته أجاب:

- نحن ذاهبان إلى بولاق!

انساقت معه كالمنومة شاعرة بأنها تعبر حدود وطنها مهاجرة إلى الأبد. ونبض قلبه بالصدق وأعذب النوايا فتخيل أنهما جسد واحد ووعى واحد. ولما دخلا الحجرة شبه العارية استرق إليها نظرة متفحصة وقال:

- دون مقامك بما لا يقال.

فنظرت من الكوة صوب النيل وهى ترفع منكبيها استهانة فقال لنفسه: «إن هذه الحجرة ذات التاريخ الطويل فى سوء السمعة تستقبل ـ

لأول مرة ـ صدقا وأصالة». ورغم تظاهرها بالثبات انتفض داخلها بتيارات متضاربة. وكانت رغبتها لا تقل عن رغبته، ولكنها لم تطاوعه بدافع رغبتها، أو لم تطاوعه بدافع رغبتها وحدها. وأقنعت نفسها بأنها لا تستسلم، ولكنها تثب إلى قمة فريدة، غير أنها شعرت من ناحية أخرى بأنها تتردى إلى قعر هاوية من الأسى الدائم. وحدست بغريزة ما أنه ـ على عنفه الظاهر ـ فى حاجة إلى حنانها، وبأنها ستفتقد الحنان إلى الأبد. ووهبت الكثير دون أن تنال ذرة من عطاء لاضطرام عقلها، أما هو فمسح على وجهه فى ارتياح وتمتم:

ـ بكل بساطة ، هذا هو الزواج!

فامتعضت لهذا القرار المحفوف باليأس، ولكنها ابتسمت فسألها:

ـ كيف تشعرين؟

فأجابت وهى تلثم خده:

ـ بالسعادة.

ـ أعترف بأنك حظى من الحياة. .

فقالت برجاء:

ـ لعلك لا تستسلم للحنق بعد الآن!

فتفكر قليلا ثم قال:

ـ إنه الوجه الآخر للحب العميق. .

هكذا ولدت من جديد فى عالم جديد. تمادت فى التوغل فيه بكل قوة. لا اختيار لها فإما الثورية وإما الضياع. إنها تنفصل نهائيا عن أبيها وأمها وأخيها، وتعايشهم اليوم كفرد من طابور خامس. واستعرضت رحلتها الطويلة ما بين رشاد وعزيز فبدت خيالية، وأن كل خطوة تخطوها ينهدم ما وراءها فينقلب هاوية لا تسمح بالتراجع قيد أنملة. وغمغمت لنفسها:

ـ يوجد أيضا حزن عميق.

متى يتأتى لها أن تنشر أسرارها دون مبالاة؟! وضاعفت من اجتهادها الدراسى لهفة على الاستقلال. ولم يجدّ جديد بالنسبة لمشروع رشاد عن الزواج، ولم يحضر فى ميعاد إجازته الدورية. بدلا من ذلك بلغتهم أنباء رسمية بأنه يعالج فى مستشفى الجيش من إصابة غير خطيرة. هرعت إليه كوثر وسنية وهما على حال من الفزع لا توصف. وعرفا أن ثمة شظية أصابت ترقوته اليمنى تحتاج إلى اعتكاف قصير. وكانت إصابة كوثر أفدح من إصابته رغم أن حاله دعت إلى الاطمئنان التام. وقالت له كوثر:

ـ لن ترجع إلى الجبهة فيما أعتقد..

فضحك قائلا:

ـ سأرجع حال شفائى..

ثم وهو يربّت ظهر كفها:

ـ نحن نقترب من هدنة!

ولكن كوثر آمنت بأنها أيام حروب وفواجع. وقالت:

ـ كنا نستعد للزواج!

فقال ضاحكا:

ـ تبين لى أن فتاتى مخطوبة!

فقالت بضيق:

ـ ما أكثرهن لمن يشاء!

فقال مداعبا:

ـ تتكلمين باعتداد الخاطبة مع أنك لا تبرحين البيت إلا عند الملمات!

وكان أمين بن منيرة أول من افتتح عصر الشرعية فى جيله على غير

توقع من أحد. وجد هند رشوان تواصل نجاحها فى كلية التجارة بهمة عالية فصارحته بأنها تود أن يخطبها وأنها باتت تضيق بسرية علاقتهما. وكان يحبها فوافقها على رأيها. واقتحم حجرة مكتبة أمه التى تقرأ فيها بعض الوقت كل مساء وجلس قبالتها. نظرت إليه متسائلة، فقال:

ـ أريد أن أخطب!

دهشت منيرة وطالبته بمزيد من الإيضاح، فقال ببساطة:

ـ هند رشوان جارتنا..

أدرك دون جهد أنها لم تسر، وكان يتوقع ذلك، ولكنه كان واثقا بحكمتها أيضا، أما أبوه فقد كتبت عليه الموافقة دون تردد بحكم المثل الذى ضربه! وسألته منيرة:

ـ أواثق أنت بنفسك؟

ـ بكل يقين يا ماما، إنها فتاة ممتازة.

فأخفت معركتها الباطنية وقالت:

ـ على خيرة الله.

فقال ضاحكا:

ـ أيضا فى كل أسرة يجب أن يوجد ٥٠٪ من العمال والفلاحين!

فقالت مفصحة بعض الشيء عن موقفها الباطنى:

ـ ولكن الرئيس نفسه زوج بناته من الطبقة العالية!

ورغم شتى التعليقات كانت الخطبة أول حدث سار فى جو الأسرة. وقيل إنها خطبة تحمل طابع زمانها الغريب فى كل شيء. وشهدت الأسرة جميعا حفل الخطبة البسيط فى شقة الأسطى المتواضعة وفى مقدمتها سليمان بهجت. وتأثر رشاد بالطقوس ففاض قلبه بالحنين، أما سهام فشعرت بوطأة سرها أكثر من أى وقت مضى. وتساءل على فى نفسه: «لم لَمْ تدع ميرفت حبيبتى؟»، أما شفيق فتذكر زكية محمدين

مقرا بأنها لا تقل فى شىء عن هند رشوان، ولكنها تنتمى إلى طائفة المنبوذين! وأدركت منيرة من سياق الحديث مع أم هند أنها تحلم بزواج قريب عقب التخرج فساورها قلق وتساءلت: «متى يصبح أمين قادرا على الزواج حقًّا؟!». وهذه الهموم تتضخم فى ضمائر أصحابها حتى تحاكى الأفلاك فى دورانها، ولكنها تذوب وتختفى إذا اصطخبت موجة عاتية. وانصبت هذه الموجة دون نذير وبلا مقدمات مثل زلزال. فذات مساء تغير وجه الإرسال التلفزيونى فاقتصر على إذاعة القرآن الكريم. ولفّت الحيرة الناس من كل جانب. قال البعض:

ـ هذا لا يكون إلا لموت عظيم فى الدولة.

ـ أو موت أحد ضيوفنا العرب!

ـ غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قُتل..

وإذا بأنور السادات ينعى إلى الأمة العربية أعظم الرجال جمال عبد الناصر. قذف نائب الرئيس المستحيل فى وجوه الناس باعتباره ممكنا وتطايرت الأفئدة فى الصدور وحل عالم خرافى محل العالم القديم. متى؟ وكيف؟ ولماذا؟ وهل هذا ممكن؟ ولم لا يكون ممكنا؟ ما تصور أحد أنه سيشهد موته. ما تصور أنه يجوز أن يموت. ثمانية عشر عاما مضت وهو يصول ويجول فى كل صدر، ممتط لكل منكب، منتشر فى كل وعى، خفاق وراء كل قلب، هو الحظ والرزق، والأمان والخوف، الأمل واليأس، الصديق والعدو، القوة والضعف، الأمس واليوم والغد، السلام والحرب، النصر والهزيمة، فماذا يبقى للناس إذا تلاشت فجأة هذه العواطف؟! غشيت الكآبة البيت القديم. أجهشت كوثر فى البكاء بلا منطق واضح إلا أن تقدم احترامها المشوب بالرهبة والخوف أمام حضور الموت المتجسد لعينيها. وسرعان ما بكت أم سيد وأم جابر. وصمتت سنية طويلا، ثم اغرورقت عيناها قائلة:

ـ لا دائم إلا وجهه!

وسمع محمد بالخبر لأول مرة وهو ماض فى طريقه إلى باب اللوق. قابله زميله فهمس به فى أذنه. لم يصدقه، وخشى أن يكون وراءه شرك لجر الأعداء إلى المعتقل، فقال لزميله بحدة:

ـ لا تردد ما ليس لك به علم!

فقال الرجل بيقين:

ـ أمام تلفزيون المقهى شاهدت وسمعت!

هرول إلى شقته فوجد ألفت وشفيق وسهام حول التلفزيون، ولا تخلو عين من أثر دموع، قال وهو يجلس:

ـ البقية فى حياتكم.

جلس واضعا حقيبته على حجره مسندا عصاه إلى خوان وأغمض عينيه، وانقضت دقائق قبل أن يفيق من ذهوله. ولما أفاق من ذهوله شعر بأنه يولد فى عالم جديد. شعر بالقيود تنحل من حول عنقه ويديه وقدميه. شعر بأن وزنه يخف، وأن نسائم الأمان تهفو إلى وجدانه. وسرعان ما اجتاحه ارتياح عميق، وملأه حبور قوى لا حيلة له فيه فأخفاه خلف جفنيه المسدلين. وتمادى به الحبور فاستغفر الله فى سره وخاف أن يفلت منه الزمام فيغشى عليه. وقد بكت ألفت لاقتحام حقيقة الموت لقلبها بقوة لم تعهدها من قبل. وبكى شفيق وسهام من أجل المعاشرة الوجدانية القديمة التى لم تتبخر كلها. وتساءلت سهام:

ـ من كان يتصور ذلك؟

فأجاب محمد:

ـ لقد أنسانا كل شىء حتى القدر.

فتساءل شفيق:

ـ من يخلفه يا ترى؟

فقال محمد بازدراء :

ـ ليس فى الإمكان أسوأ مما كان!

أما فى العباسية فقد ملك الحزن منيرة وأمين بقوة لا تبشر بعزاء قريب على حين لبث على فريسة للذهول، حتى تمتم بمرارة ساخرة :

ـ هذه هى التنحية التى لا رجوع عنها!

وعاش عزيز صفوت تلك الأيام أكثر وقته فى الشوارع والمقاهى. صاحبته سهام وقتا منها غير قصير. وقال لها بثقة :

ـ عهد السادات قصير، أما المستقبل فلرجالنا!

وخاض خضم الحزن الشامل، وشهد الجنازة، وسمع التلقين المذاع فتخيل القبر كنهاية لا مفر منها، كزنزانة غارقة فى الظلام، وتصور الضجعة المنفردة المعزولة عن المجد والخاشعة فوق حفنة من تراب. وسرعان ما دهمه وارد لم يجرَ له فى بال متمثلا فى سيل من النكات! تأمل ذلك وتعجب، فقالت سهام :

ـ أعداؤه كثيرون أيضا.

ولكن بدا الأمر أوسع من ذلك. وقال لها :

ـ إنه رمز للحب والخوف فهو حقيق بأن يثير عواطف متناقضة.

أجل، ليس الحزن وحده ما يحرك الناس. إنه حزن ظاهر وفرح خفى ورعب كامن تتناغم جميعا فى لحن جنونى. الموت يعلن على الملأ أنه يأخذ عبد الناصر نفسه فأشعر كل إنسان بقربه الشديد فقاسمه موته وهو لا يدرى. قال لسهام :

ـ الناس تبكى أنفسها أولا!

فقالت سهام :

ـ اعتاد الناس أن يروه وحده فوق خشبة المسرح، اليوم المسرح خال، وليس أمام الفراغ إلا الضياع والذعر..

ـ أوافقك تماما، فيما مضى أراد أن يتنحى فاستبقوه فيما يشبه الثورة، ها هو ذا الموت يفلته من قبضتهم اليائسة، ويطالبهم بحمل أمانة لم يعتادوا حملها، فراحوا فى يأسهم يبكون وينكتون . .

ويمضى الوقت ويأخذ الطوفان فى الانحسار وما تلبث الدراما أن تحفل بالأحداث يجر بعضها بعضا . وتتأزم الأمور وتتعقد، ولكنها تنتهى بنهاية غير متوقعة فينتصر الرئيس الجديد على أعدائه انتصارا مبينا . وبالانتصار تلوح بشائر زعامة جديدة، ومولد شعبية جديدة متعطشة للانتصار ومتطلعة للأمان، وتبدأ دورة جديدة للبحث عن مخرج من الأزمات المتراكمة . وكان رشاد قد رجع إلى الجبهة فى كامل عافيته، وبدا أنه انهمك فى العمل لدرجة أنسته إلى حين مشروع زواجه ولكن كوثر لم تنس . وأدركتها هموم جديدة باعتلال كبدها فتبدت للناظر أضعف من أمها ـ الماضية فيما بعد الستين ـ مع محافظتها على صحتها ورونقها، ومصارعتها للكبر مصارعة لا هوادة فيها . وفى أواخر الخريف أمطرت السماء مطرا غزيرا فرشح سقف الصالة وانداحت بقع بالجدران على حين تسللت قطرات من ركن حجرة المعيشة . عند ذاك تشجعت سنية قائلة :

ـ لا مفر من إصلاح السطح . .

وأذعنت كوثر لمشيئة أمها دون تردد . وجاءتهما أم جابر الطاهية بقريب لها، أزال الطبقة المتهرئة وثبت مكانها طبقة من الأسمنت . وتساءلت الأم :

ـ ألا نعيد طلاء الصالة وحجرة المعيشة؟

ولكن كوثر ـ وكانت مدخراتها تنفد باستمرار ـ أجابت :

ـ فلنؤجل ذلك!

فقالت سنية وهى تدارى هزيمتها بابتسامة :

ـ سيجىء الفرج على يد الرئيس الجديد .

فقالت كوثر بوجوم :

ـ ولكن رشاد غارق فى الجبهة يا ماما !

ـ الرئيس مشغول بالداخل ، جاد فى البحث عن حل سلمى ، وعلاقته بالعرب تتحسن يوما بعد يوم . .

وفى شقة باب اللوق استعاد محمد شخصيته المفقودة . مضى يتكلم بعد عكوف طويل على المناجاة الباطنية . وتمت لقاءات كثيرة بينه وبين أصدقائه القدامى . وقال له أحدهم مرة فى مكتبه :

ـ الرئيس الجديد صديق .

فقال محمد بحذر :

ـ ليكن اعتمادنا على أنفسنا . .

ـ العدالة تزحف حتى شملت الإَقطاعيين أنفسهم . .

فراح يذكرهم بتجربة الماضى الخائبة ، ووافقه على ذلك شفيق . أما سهام فأساءت الظن بالعهد الجديد منذ تم النصر لرئيسه ، لا ترديدا لأقوال صفوت فقط ، ولكن لأنها بلغت الغاية فى تطورها الجديد ، حتى الدين اقتلع من قلبها . واشتد شعورها بالغربة فى أسرتها ، وشعرت بتهديد خفى يحدق بأمنها وهى بينهم ، حتى قالت لنفسها مرة :

ـ هذه الشقة لا ينقصها إلا مؤذن كى تصير مسجدا .

وقد آنست من أحد مدرسيها ميلا نحوها حتى كاشفها يوما برغبته فى الزواج منها . وذعرت بشدة ، وأخبرته بأنها «محجوزة» ، مشفقة فى الوقت نفسه من ترامى الخبر إلى أهلها . لذلك فكلما ذكر للزواج سيرة كانت تقول على سبيل الاحتياط للمستقبل :

ـ لن أفكر فى ذلك حتى أكمل دراستى !

وتبلورت فى عقلها خطة للمستقبل وهى أن تتزوج من عزيز ولو

اضطرت إلى إبلاغ والديها من بعيد. بالمراسلة! وزادتها الأيام ثقة بحبيبها ومعرفة بجوانب حسنة فيه. فهو يحبها بصدق لا تخطئه غريزتها، وهو جاد كل الجد فى تمسكه بمبدئه، وحتى غضبه على أعدائه مبطن برومانسية موهوبة لإنسانية لم توجد بعد. ثم إنه إنسان، يتذوق الشعر والموسيقى ويحب الكلاب. ولكن شد ما حقد على الرئيس الجديد. وقال لها مرة:

ـ إنه مقلب لم يجر لنا فى خاطر، وهو دائب على مغازلة الرجعية العربية والغربية!

وضاعف من قلق سهام أن رؤيتها السياسية الجديدة لم تعد سرا مصونا، فمن انسياق فى الأحاديث المتبادلة بينها وبين زميلاتها فى قسم اللغة الإنجليزية أفلتت تعليقات شتى تنم عن حقيقتها، فضلا عن أن واحدة منهن على الأقل لمحتها فى الجيزة بصحبة عزيز صفوت. أما أسرة منيرة بالعباسية فقد مضت حياتها فيما يشبه الهدوء. أجل، أثار مشاعرها نبأ خروج زاهية من السجن، حتى تساءل على ساخرا:

ـ ألا يقضى الواجب بزيارة فيللا المعادى للتهنئة؟!

ولكن منيرة كانت شفيت تماما من سليمان بهجت، وسلمت أيضا بفقد عبد الناصر فاستغرقها تماما عملها الرسمى ونشاطها الخاص فى مكتبتها. وتبدت فى وقار كهولة بشعرها الأبيض وجمالها الذابل كأنما تماثل أمها فى العمر أو تزيد عليها. ولم تلق بالا لعتاب أمها وهى تسألها:

ـ ما الذى يجعلك تبقين على هذا الشيب المبكر؟!

وسعد أمين وهند بخطبتهما وهما بعيدان عن موعد المشكلات، وغرق على فى بحر العسل الذى يستحلبه بين أحضان ميرفت. غير أن «ناصرية» منيرة وأمين انتبهت منزعجة وهى فى سبات الحداد على

همسات تتردد أحيانا بالنقد لعصر الزعيم الراحل، قالت على مسمع من أمين:

- يا لها من وقاحة!

فقال أمين بامتعاض:

- لا عجب فنحن نسير فى طريق جديد!

ولكن ما المخرج من المشكلة الأساسية المتجسدة فى الجبهة؟! أجل. ثمة شعور بالأمان وسيادة القانون. وثمة غزل للديمقراطية، ولكن الجو راكد والغد محجوب بغمامة قاتمة. ونفد صبر الأعصاب فانفجرت مظاهرات فى الجامعة. وبلغت درجة من الخطورة قبل أن تتلاشى فى السكينة من جديد. واختلفت المواقف بين الأحفاد، فاشترك فى المظاهرات أمين وسهام بدافعين مختلفين متقاربين، واشترك على بلا دافع على الإطلاق، أما شفيق فانسحب إلى قاعدة المتفرجين. ورجع ذات مساء - فى أثناء الاضطرابات - إلى أسرته بباب اللوق مضطربا شاحب اللون، جلس مع أسرته فى حجرة المعيشة، ثم قال بتأثر بالغ:

- عزيز صفوت قُتل!

وإذا بصرخة تفر من فم سهام ممزقة بالألم وهى تصيح:

- لا!

سرعان ما تحولت مشاعر الأسرة من النبإ المحزن لتتركز فى فتاتها الجميلة. وغلبها الحزن فانهارت تماما غير مبالية بالنظرات المستطلعة وما وراءها. هكذا تكشفت لهم الحقيقة، وفى ظرف يدعو للأناة والصبر. ونهضت ألفت فاحتوت سهام ومضت بها إلى حجرتها، ولبث محمد وشفيق يتبادلان النظر فى ذهول ووجوم. واكفهر وجه محمد وبلغ به القهر منتهاه فقال لابنه بجفاء:

- إنك المسئول الأول!

انكمش شفيق أمام انفعال أبيه وقال بصوت ضعيف:

- ليس ذنبى..

ثم وهو يستميت فى دفع التهمة عنه:

- جرى كل شىء تحت أعينكم..

فصاح محمد:

- لم يكن لرأيى وزن أمامكم، وحيال زمانكم..

فقال شفيق برجاء:

- حلمك يا بابا، كان يمكن أن يحدث أى شىء فى الخارج، وكيف نعيش خارج زماننا؟!

فقال محمد بحنق:

- أعرف ما يقال، سمعته مرارا وتكرارا، ما هى إلا لعنة وباء!

ثم حدج ابنه بنظرة متفحصة كأنما يحقق معه وسأله:

- معروف أنه انقطع عن الدراسة فماذا دسه بين المتظاهرين من الطلبة؟

- لعله ذهب كصحفى!

- بل ذهب للتحريض كشيوعى..

- ربما، لست مسئولا عنه..

فقال الرجل بحنق:

- لست آسفا عليه، ولكن آسف على نفسى!

أما ألفت فقد غسلت وجه سهام بالكولونيا ووهبتها من الحنو فوق ما تملك. وقالت:

- ليتك تسلطت على أعصابك!

فقالت وهى لا تكف عن البكاء:

ـ لا يهمنى . .

ـ تمالكى عواطفك، أرجوك!

ولكن قلبها كان يتقطع إربا، والحزن يزحف مهيبا قاسيا منذرا بالخلود، وخرابة قاحلة تقترب لتكون لها منفى أبديا، لم يبق إلا قلب يخفق وحده كقرار نغمة يفتقد جوابه على الدوام. وفى صباح اليوم التالى لم يشر أحد بكلمة إلى «حادث» الأمس. انتشر السر مثل شعاع الشمس فى الصيف، ولكن تجاهلته الأعين فلم تره. ومضت أيام قبل أن يخلو إليها أبوها فيسألها:

ـ كيف حالك؟

فحركت شفتيها دون أن تنبس. عند ذاك قال بحنان لم تتوقعه:

ـ لا بأس من المعاناة فهى حال الدنيا، وعلينا أن نرضى بقضاء الله دون قيد أو شرط . .

وربّت يدها وواصل:

ـ كنت يوما مثلك سعيدا بآمال لا تحصى، وفى بضع ساعات تقوض عالمى ففقدت عينا وساقا ونصف رزقى على الأقل، ولكننى لم أنهزم ولا ماتت ثقتى بالله، ومن يعتز بالإيمان لا يذل بالهوان، وربنا معك يا بنتى . .

انحسر ستار الغربة أمام دفقة سلام أبوية، ولكن سرعان ما جثم الظلام كرة أخرى. الحقيقة الثابتة أنها غريبة تماما فى أسرتها. غربة لا يداويها الحنان أو الحب. إنهم يتعاملون مع «أخرى» لم يعد لها وجود، وما هم فى الحق إلا أعداؤها. أكان أبوها يخاطبها بهذا الأسلوب لو علم بما خسرته من جسدها وروحها؟! المسألة فى نظره تنحصر فى حبها لشاب يرفضه هو لعقيدته وعدم كفاءته لها، ولعله سُرَّ بالقدر الذى أزاحه من طريقه مؤملا فى الوقت نفسه أن يهبها الحظ من هو خير منه.

إنها فى واد وأباها فى واد آخر، ولا إنقاذ لها إلا أن تهاجر بطريقة ما من هذا البيت الذى تقطعت بينها وبينه الأسباب. وهل بقى لها من عزاء إلا فى ثوريتها وهى الإرث الحقيقى لحبيبها؟! وستظل بين حاضر مشتعل ومستقبل غامض تحت تهديد دائم بالحرج والفضيحة. ولم يشر محمد بكلمة واحدة إلى مأساة ابنته فى البيت القديم. وأصبحت منيرة محتكرة الصوت المعارض الوحيد فى جلسة الجمعة. قال لها محمد:

ـ إنه عهد أمان بعد خوف، وقانون بعد فوضى..

فقالت منيرة ساخرة:

ـ تجلت وحشيته فى قمع المظاهرات!

فتقبض قلب محمد وقال بفتور لم يلحظه أحد:

ـ حال استثنائية، والموقف يتطلب الحزم..

ـ دائما يدور الكلام عن الموقف، والحقيقة أنه لن يجرؤ على خوض حرب..

وكان محمد فى أعماقه يؤمن بذلك. وتساءلت كوثر:

ـ لماذا تريدين الحرب؟ سيجند ابناك بعد عامين على الأكثر..

ـ لا أريد الحرب، ولكنى أريد أن أقول إنهم يتخذون منها عذرا لوحشيتهم..

فقالت سنية:

ـ لندع له بالتوفيق..

فقالت منيرة بامتعاض:

ـ صدقونى أنه لن يقنع بتصفية السلبيات الماضية، ولكنه سيلحق بها الإيجابيات أيضا.

فقال محمد باسما:

ـ قولى ما شئت فالحق أنه لا وجه للمقارنة بين ما كان وما هو كائن . .

وإذا بكوثر تقول :

ـ أتمنى أن أسمع خبرا واحدا هو أن الحرب انتهت ، وأن رشاد راجع ليتزوج !

وعاودت محمد ذكرى مأساته فعجب كيف فضلت سهام عزيز صفوت على رشاد؟ ! وقال لنفسه :

ـ لا تفسير لذلك إلا سوء حظى !

ولكن حظا أسوأ من حظه بما لا يقاس انقشع فى لحظة أبدية كأنه سحابة صيف . ارتفع صوت راسخ النبرات فى الراديو يزف إلى الشعب نبأ عبور قواته المسلحة للقناة . أهى الحرب من جديد؟ ! هل تمخض الجو الراكد المؤذن بنوم طويل عن صاعقة تقتلع الأعصاب من جذورها؟ هل يتطاير المستحيل ويتلاشى كأنه وهم ماكر؟ ! هتفت كوثر بجزع :

ـ ابنى !

وتساءلت سنية المهدى فى ذهول :

ـ حرب؟ ! ما بالها تتكرر كالصلاة؟ !

وقالت لها كوثر بصوت متهدج :

ـ لم يكن خوفى لغير ما سبب . .

فغمغمت سنية :

ـ إنه رحمن رحيم !

ولم يصدق أحد من أسرة محمد الخبر ، أو لم يصدق ما يقال عن النصر . تذكروا ما ذاع وملأ الأسماع أيام ٥ يونيو . وتساءل محمد بحيرة :

ـ لماذا نتطوع بالانتحار؟!

وقالت سهام لنفسها: إن يكن انتحارا حقّا فسيجيء بالشفاء لبعض أوجاعها. أجل. فلن يخلص البلد من الرجعية إلا هزيمة ساحقة. وربما انفجرت في أعقاب ذلك القوى الشعبية المطحونة. وكالعادة لجأ محمد وألفت إلى محطة لندن وصوت أمريكا. تضاربت الأخبار بادئ الأمر ثم تأكد النبأ المذهل. تجلى النصر في هالة سحرية كمعجزة باهرة تحلق فوق الخيال والتاريخ. اندثرت شخصية صفراء مهزولة وحلت محلها شخصية تضطرم بالعافية والثقة، تلاشت روح فاسدة مكفنة في الهزيمة وخلقت روح جديدة تختال بالحبور والإلهام، تبخر يأس الهزيمة وذل القهر وانكسار القلب وهزجت الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون.

ـ انتشل الرجل مصر من الفناء، وانتشل العرب..

سهام منيت بالهزيمة وحدها. قتل عزيز صفوت من جديد وانتصر العدو ووئد الأمل وابتسم المستقبل للرجعية المصرية التي تحرر سيناء، ولم تعد هي إلا فتاة ضائعة، منبوذة، مهددة، بالفضيحة. ولم تخل منيرة من سرور، كذلك أمين، ولكنه سرور أفسدته الغيرة، وكدره الحنق، وتساءلت بحيرة:

ـ كيف انهزم الأصل وانتصر الظل؟!

ثم عزت نفسها قائلة:

ـ لكنه جمال الذي خلق هذا الجيش وجهزه!

وتشبث أمين بهذا القول كأنه طوق النجاة. حتى علي هزت نشوة نفسه الرافضة، ولكنه سرعان ما استردته هموم طارئة بسبب مرض ميرفت هانم. قهرها روماتيزم مفصلي ومتاعب في الجهاز الهضمي وفساد في الأسنان اقتضى خلعها. انطفأ ولعلها بالحياة وعجزت عن

الحب واجتاحتها طفرة من الشيخوخة فراح يمضى وقت زيارته إلى جانب فراشها مفعم القلب بالرثاء والأسف والقرف. وفى قمة النصر حدثت الثغرة، وكانت مفاجأة غير سارة، ولكنها لم تخدش المعالم الأساسية للصورة. غير أنها لم تخل من رد فعل شامت عند منيرة وأمين، أما سهام فقالت بجرأة على مسمع من والديها وأخيها:

ـ إنها هزيمة أشنع من ٥ يونيو!

فقطب محمد وقال بجفاء:

ـ هذا ما يردده زملاء لى من الشيوعيين، حذار يا سهام، إنك تحيريننى..

فقالت بإصرار:

ـ إنى حرة فى رأيى..

فهتف بها:

ـ حرة نعم، ولكنك مسلمة أيضا!

فقالت لنفسها: «لست مسلمة». وقالت أيضا دون أن يدرى بها أحد:

ـ إنى أختنق فى هذا البيت..

وتوقف القتال، وتنفست الكائنات المتوترة، وتم البعث فلا رجوع عنه. غير أن البيت القديم لم يسلم، أو لم يسلم تماما. وكان محمد أول من علم بالخبر إذ زاره فى مكتبه صديق من ضباط المدفعية، وقال له:

ـ ابن أختك رشاد أصيب فى الثغرة، ونجا بأعجوبة!

قرأ محمد فى وجه صاحبه أنه لم يدل بكل ما عنده، فحدجه بنظرة واجمة متسائلة:

ـ اقتضى الأمر جراحة لبتر الرجلين!

تجلى الحزن فى عين محمد الباقية، فقال الآخر:

ـ نحن على أى حال فى عصر الأطراف الصناعية.

وغادره وهو يقول:

ـ إنه بطل!

شعر محمد بثقل المهمة. وأبلغ منيرة أولا ثم اتفقا على الذهاب معا إلى حلوان. وجدا كوثر على حال شديدة من القلق بخلاف سنية التى بدت رصينة جامدة، حتى قال محمد لنفسه: «لعلها رأت حلما منذرًا». وسبقته منيرة فقالت لكوثر:

ـ الحرب انتهت، ورشاد نجا والحمد لله..

فهتفت وهى تنظر نحوها بارتياب:

ـ حقّا؟!

فألقى محمد بنفسه فى الاعتراف قائلا:

ـ تعرض لإصابة، إنه بطل، ولكنه نجا..

فهتفت:

ـ قلبى لا يكذب.

فقال:

ـ أجريت له جراحة ناجحة!

حلت بالبيت الحقيقة والحزن. واستقبلت القلوب أسى دائما ولكنه مبطن بالحمد. وامتزج الدمع بالفرح عندما رجع رشاد إلى البيت محمولا. أجلس من أول يوم على كرسى طبى ذى عجلتين، ولكنه أبدى روحا عالية. لم يكن الأمر محض تمثيل ولكنه ـ أيضا ـ الشعور بالنجاة من هلاك محقق كان مصير رهط من أقرانه طالت به عشرتهم فى الكلية والخندق والحرب. وقلب عينيه الجميلتين فى الوجوه المحدقة به.

سنية . . كوثر . . منيرة . . محمد . . شفيق . . سهام . . أمين . . علي . . سليمان بهجت وقال ضاحكا :

ـ ها قد اجتمعتم مرة أخرى!

وأشار إلى أمه قائلا :

ـ هذه السيدة لا تريد أن تحمد الله!

ونظر إلى سهام وقال وهو يضحك من جديد :

ـ نجوت من مصير لا يسر!

فاحمرَّ وجهها الجميل حرجا وقالت :

ـ إنى فخور بك .

فقال بحرارة :

ـ لتكن آخر الحروب . .

سُرَّ برجوعه إلى البيتَ سرورا عميقا فتمتع بالدفء والحب . واستهان ساعات بمصابه . غير أنه كان يشرد أحيانا وهو ينظر إلى المتبقى من جسده الفارع فيذكر نشاطه وتقلبه بين الأماكن المحبوبة مختالا بشبابه وجماله فيهزج قلبه بالأشجان الخفية . ولم يكن يستسلم للحزن ، كان يدفعه ويطارده ويقول لنفسه :

ـ عش فى الواقع وإنه لغنى بإمكانات لا حصر لها . .

ولما قالت له جدته مرة :

ـ إنى راضية إذعانا للمشيئة الإلهية . .

فتفكر مليا ، ثم قال لنفسه ناشدا الراحة المطلقة :

ـ لا بأس لمن أبى الاستسلام للعدو أن يستسلم للقدر!

وقررت سنية أن تصوم رجب وشعبان ورمضان بالإضافة إلى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع . أما كوثر فأوقفت نفسها على رعايته . وملأ هو وقته بألوان التسلية ، يدفع كرسيه إلى الفراندا فى الأجواء

المناسبة، يتابع الراديو، التلفزيون، يستقبل أصدقاء النادى الرياضى فى مساء معين فأحيا ذكرى اجتماعات السمر التى ولع بها جده حامد برهان. ولم يجد فى أمه محدثة شائقة بخلاف جدته التى لا ينفد مدخرها من ذكريات الماضى وغرائب الأحلام وعجائب عالمى الغيب والشهادة إلى مناقشاتها الواعية عن الدنيا وأحوالها. وتسأل كوثر أمها وهما منفردتان:

ـ كيف يصنع إذا وجد نفسه وحيدا ذات يوم؟

فتقول سنية بإيمانها الراسخ:

ـ لن يجد نفسه وحيدا أبدا..

ولأول مرة فى حياته يغازل القراءة وتغازله. ومن عجب أنه انساق إليها بيسر وشغف. وتخلق فى أعماقه ميل جديد نحو الدين فاقتنى من مراجعه ما شاء وهيمن عليه الاطلاع الدينى بقوة مضت تزداد يوما بعد يوم، وحام حول الأسئلة المحيرة فتطلع إلى عالم الثقافة والأشواق بحماس لم يخطر له ببال من قبل. حتى الكتابة حلم بتجربتها، حتى قال لنفسه من فوق كرسيه الطبى:

ـ ما أضيق الوقت وأقصر العمر!

وفى أحد أيام الجمع سأل خاله محمد:

ـ أينبغى أن يفقد الإنسان نصف جسمه ليهتدى إلى نفسه؟

فسأله محمد عما يعنيه، فأجاب:

ـ فتح لى العجز الأبواب المغلقة.

وراح يحدثه عن شغفه الجديد بالثقافة وفى مقدمتها الدين فسُرَّ محمد ورفع عكازته بيمناه قائلا:

ـ طوبى لما يهبنا خصوبة الروح..

فقال رشاد:

ـ ويخطر لى أحيانا أن أكتب.

فهتف محمد:

ـ الله أكبر!

إنها رغبة مبهمة لم تتبلور فى هدف محدد، ولكنه دخل فى دين الإسلام بالنية والعمل معا. صلى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخارى ويزداد تقبلا لقدره ورضًا عنه. وهو سعيد باشتراكه فى النصر والتضحية والبطولة، وهيهات أن تنغص عليه صفوة بعض الكوابيس التى تنتاب نومه أحيانا أو صور الشهداء التى تلم بخياله أحيانا أخرى. ويتساءل:

ـ لم تعذر على الإنسان أن يعيش حياة سعيدة فى هذه الدنيا؟!

ثم تساءل فى حيرة:

ـ هل أجد عروسا ترضى بى زوجا؟!

وصاحب ذلك ميل المؤشر من الشرق إلى الغرب وانبثاق دعوة مصرة إلى الانفتاح، مع تفجر حملة ضارية على الزعيم الراحل فاضت بها الكتب والصحف والمجلات، وبرز فى ميدانها المفتوح أعداء وأصدقاء ومحايدون فصارت انتقاما وتشفيا ويقظة واعترافا وتقربا. ووقف جيل الأحفاد منها موقف الدهش والبلبلة، يستوى فى ذلك من أقام على ناصريته مثل أمين، أو من وافقه مثل سهام، أو من رفض كل شىء مثل على، أو من آوى إلى عقيدة جديدة مثل شفيق.

ـ ألم يعبدوه بالأمس؟

ـ ألم يكن القائد والزعيم والمعلم والملهم؟

ـ أى نفاق وأى خسة وأى جبن!

ـ جيل يستحق التصفية..

ـ من نصدق؟!

ـ أنصدق ما يقال الآن؟!

ـ ليس بلدا، ولكنه مرحاض عمومى . . !

ولم تمر الحملة فى لقاء الجمعة دون إثارة. لم يعد رشاد يبعث على الرثاء، فقد بات عادة، وعبر هو الأزمة بشجاعة وتطور بها إلى ما هو أفضل. لذلك أفصح محمد عن سعادته بالانقضاض على العصر الناصرى. قال:

ـ ليعلم من لم يكن يعلم، ولينتبه من فقد وعيه!

فتساءلت منيرة:

ـ هل ننسى القضاء على النظام الملكى، والجلاء، والإصلاح الزراعى، والتأميم، وتمصير الاقتصاد، والقومية العربية؟!

فقال محمد متهكما:

ـ سيعترف له المستقبل بفضل واحد باعتباره منشئ الإمبراطورية الإسرائيلية!

فسألته منيرة بمرارة:

ـ أتدرى ما يقول الشباب؟

ـ إنك تقصدين الناصريين وحلفاءهم من الملاحدة، أما غالبية الشباب فبخير وعافية وهى تعرف سبيلها كما تعرف ربها.

واشترك رشاد فى الحديث قائلا:

ـ لكل عهد إيجابياته وسلبياته ومهمة الأحرار أن يؤيدوا الإيجابيات ويحاربوا السلبيات . .

فقالت سنية:

ـ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ صدق الله العظيم.

فقالت منيرة بازدراء :

ـ لا يعلو صوت على النفاق، هذه هى مأساتنا . .

فقال محمد بحدة :

ـ عرفنا المشانق ولم نعرف النفاق قط . .

فقالت منيرة متهكمة :

ـ اعرفوا أيضا الانفتاح .

فتساءلت سنية :

ـ ماله الانفتاح؟ حتى روسيا أخذت به . .

ـ ولكنه سيعنى عندنا الغلاء والخراب .

وعند تلك النقطة غيّر محمد شراعه قائلا :

ـ نحن نوافق عليه ضمن خطة الإنتاج . .

فتساءلت منيرة :

ـ وهل توافق على ذلك الصقور المتحفزة؟

وجرت خواطر سنية فى أسى، إنهم يتحدثون عن كل شىء، ألا يذكر أحدهم البيت القديم بكلمة طيبة؟! وإن يكن هذا هو حظ البيت فمن عسى أن يذكر المدفن؟! وثمة نظرة عطف تحبو فوق الشاب العاجز متضمنة توسلاتها الصامتة. البيت يوغل فى القدم، أثاثه يبهت ويتهرأ، حديقته تحتضر، أيليق هذا بمقام البطل؟! وقال رشاد :

ـ الحق أن الغلاء يزحف بقوة، إليكم تجربة مارستها بنفسى، منذ عام وأشهر عرضت علىّ فيللا بالمعادى بستة آلاف جنيه، علمت أمس أن صاحبها رفض بيعها بخمسة وعشرين ألفا من الجنيهات!

فقالت منيرة :

ـ ما يقال عن الأراضى لا يصدقه العقل . .

فقال محمد:

ـ وخلو الرجل أصبح خرافة . .

فقال رشاد:

ـ أفكر أحيانا فى تجديد هذا البيت!

فهتفت سنية وقد أشرق صدرها بنور ربها:

ـ خيرا ما تفعل يا رشاد، مساحة الحجرة من حجراته أوسع من مساحة فيللا حديثة، ولا تنس الحديقة المهجورة التى يمكن أن تتحول إلى جنة . .

وساءل محمد نفسه: هل يجدد رشاد البيت لوجه الله أو يسجل التكاليف كيلا يهضم حق أمه عندما يئول البيت ـ بعد عمر طويل ـ إلى الورثة؟ لم يتحمس للفكرة ولم يعلق، وتبادل مع منيرة نظرة ذات معنى دلت على تناغم وساوسهما. أما رشاد ففاجأ الضيوف بقوله:

ـ سأفكر يوما فى الزواج!

اتجهت صوبه الأعين. وسعدوا فى الحقيقة بالخبر الذى كانوا منه فى شك، ولم تتمالك كوثر إلا أن هتفت:

ـ دعنا نبحث لك عن عروس لائقة!

فقال بجدية:

ـ صبرك، كل شىء رهن بوقته.

ورسخ الغلاء منذرا بالتعملق، وانتشر العرب فى الأحياء كالماء والهواء. جاء الغلاء بالوحشية، أما العرب فجاءوا بالكرم تياهين بموقفهم القومى فى البترول، ولكنهم نفخوا فى الغلاء من حيث لا يقصدون. حتى أم جابر الطاهية طالبت بمضاعفة راتبها لمواجهة الغلاء فتحققت مشيئتها فى الحال، غير أنها ذهبت ذات يوم ولم تعد، وعلم أنها سافرت بصحبة ابنها النجار إلى السعودية لتعمل طاهية بأجر

خيالى. عند ذاك أنذرتهم الحياة بعناء جديد. أجل، طالما أثبتت سنية مهارتها الفائقة فى الطهى، ولكنها بلغت من الكبر ما لايجوز معه الاضطلاع بمهمة الطهى الشاقة رغم تمتعها بصحة جيدة يغبطها عليها من يماثلونها فى السن. ورغم أن رعايتها لصحتها لم تهن وإن كفت عن صبغ رأسها بالحناء منذ رجع رشاد إلى بيته محمولا على أيدى الرجال. تركت الشيب يرعى رأسها بلا حسيب قانعة بإخفائه تحت منديل محكم وتلفيعة بيضاء. ولم تر كوثر مفرا من القيام بالمهمة رغم اعتلال كبدها وهزالها وتوسطها الحلقة المفضية للستين، مستعينة فى التجهيز بأمها وأم سيد. وجدّوا فى البحث عن طاهية حتى وافقت ـ أم عبده ـ على منحهم نصف يوم بثلاثين جنيها شهريا. والتهمت ميزانية الطعام قدرا لا يستهان به، يزداد مع الأيام دون توقف، حتى توارت سنية بمعاشها خجلا وأدركت أنها تعيش عالة على كوثر وابنها. لذلك لم تتردد كوثر أن تقول لرشاد وهى منفردة به:

ـ هأنتذا تفكر فى تجديد البيت والحديقة، كن حكيما، الأسعار ترتفع كما ترى، والبيت ـ بعد عمر طويل ـ لن يئول لنا إلا ربعه، الحذر واجب، فإيرادك ثابت وقيمته تقل يوما بعد يوم..

فقال متمهلا:

ـ لا تنسى أننا نقيم فيه، وأننى حبيسه، ويلزمنى مناخ طيب..

فقالت متنهدة:

ـ كما تشاء ولكن عليك بالحكمة والحذر..

فاجأهم سليمان بهجت بطلاق منيرة مدعيا فى الوقت نفسه أنه يحررها من قيد يعيق حرية إرادتها ويهدر سعادتها دون مقابل حقيقى. ولم يخدع محمد بالطلاء، وكان بحكم مهنته ونشاطه السياسى ذا قدرة على النفاذ إلى الأسرار، فقال لمنيرة:

ـ المسألة أنه وزوجه يعملان فى الاستيراد، وهى كما نعلم مركز القوة والعقل المدبر فحملته على الطلاق لتستأثر بثمرة عملها!

فقالت منيرة بعتاب:

ـ هذا ما أردته من أول يوم.

فهزّ رأسه آسفا وقال:

ـ فيللا المعادى تعتبر اليوم قصر استقبال لأغنياء العرب، يختلط فيه اللهو بالعمل، إنى أرثى لأمين وعلى لانتسابهما إليه!

فقالت بامتعاض:

ـ حدثنى عن موقف الدولة من هذا الفساد!

ـ لا جدوى من الشكوى، سليمان وزاهية ما هما إلا قردان فى حديقة ملأى بالقرود، جن الناس، فقدوا وعيهم، يحومون حول العرب، الذين فوق يتعهرون والذين تحت يشحذون!

وتبادلا نظرة متجهمة، ثم سألها:

ـ كيف تواجهين الحياة؟

فأجابت بوجوم:

ـ كلما مر شهر تساءلت: ترى هل نحافظ على مستوى معيشتنا الشهر القادم؟

ـ مثلك تماما، لنا أولاد، من الخطر أن يهبطوا عن حد معين من الحرمان، لنحمد الله على أنهم وصلوا إلى المرحلة النهائية..

فقالت متهكمة:

ـ ثم تبدأ مرحلة من المشكلات الجديدة، يا لهم من جيل محاصر سيئ الطالع! ألم يكن الأجدر بالعرب أن ينشلونا من وهدتنا بدلا من أن يجعلوا منا حقلا للتسول والدعارة؟!

وكأن على كان يحاورهما عن بعد وهو يقذف بنواياه المتقدة نحو الوجود. يلعن وطنه و مواطنيه ويتربص باللحظة المناسبة التى يهجره فيها إلى الأبد. وذات صباح نعت إليه أمه ميرفت هانم حماة خاله محمد! لم تفطن أمه بطبيعة الحال إلى هزته الباطنية. وقال لنفسه يعزيها:

ـ ماتت فى الواقع منذ أشهر.

المرأة التى وهبته حبا بهيميا غريبا خارقا للمألوف داوى بها جهازه العصبى المختل. خبر معها راحة متجددة. وأنانية متسلطة، وخيلاء معربدة، وحبا غير مألوف يتحدى الأكليشيهات الشعرية الجارية، انتشله من مخالب أزمته وفى الوقت نفسه رسخ رؤيته المتمردة. وقال متهكما:

ـ خير ما فعلت!

وهز منكبيه قائلا:

ـ أخى أمين أسعدنا حظا..

وكان أمين سعيدا حقّا، يحب بنتا ممتازة وتحبه، ولكنه باقترابه من نهاية المرحلة التعليمية الأخيرة رأى عن قرب مستقبله المعقّد بالمشكلات. على أنه سره أن يسمع هند وهى تردد:

ـ لا مشكلة بلا حل!

فقال لها مغالبا همومه:

ـ ومعنا الحب، وفيه ما يكفى..

وكانت هند بخلافه لا تكترث للسياسة ولا الأحاديث العامة. أجل، كانت متفوقة كطالبة، ينحصر اهتمامها فى دراستها وشئونها الخاصة ومستقبلها وتعنى فى الوقت نفسه بإتقان شئون البيت كأنها امتداد لدراستها، كما كان حبها لأمين أقوى عاطفة فى حياتها. ولم يكن لها من الدين ـ كالسياسة ـ إلا قشور، ولكن الدين تسلل إليها ـ على غير

شعور منها ـ عن طريق الأخلاق. لذلك اعتدها أمين ـ وهو يتنفس مناخا ينضح بالفضائح ـ لقية لا توزن بمال. أما شفيق بن محمد فقد تمادى فى توثيق علاقته بزكية محمدين حتى أحبها. وبهبوط الحب عليه انسربت إلى أعماقه الهموم والفكر. ومن قبل ذلك لم يخلُ ضميره من قلق. كان يداوم على الاتصال بها ويجتر وساوس القلق والمحاسبة. ولما أحبها قال لنفسه:

ـ لا يدرى أحد أين يجد قلبه مستقره؟!

وكان التفاهم بينه وبين أبيه حميما راسخا، كابن وأب، وكمؤمنين فى عقيدة واحدة. وجد فى نفسه الشجاعة الكافية كى يعترف لأبيه بعلاقته بزكية محمدين غير مخف عليه سرا من أسرار حياتها. أصغى محمد إليه كاظما انفعالاته تشجيعا له ورحمة به. وختم شفيق اعترافه بقوله:

ـ أخطأت الفتاة ولها عذر كما أخطأت ولى عذرى أيضا!

فهز محمد رأسه نفيا وقال:

ـ كلا، كان بوسعها أن تحافظ على شرفها وكان بوسعك أن تصبر..

حدس الجواب من قبل فتساءل:

ـ وإذا تاب كلانا؟

فقال محمد وهو يتفحصه بعناية:

ـ التوبة أمل الخاطئين..

فتردد لحظات ثم تساءل:

ـ أعنى أتوافق عند ذاك على زواجنا؟!

وجد نفسه محاصرا وتجرع خيبة أمل مريرة. واستسلم لانفعاله فقال:

ـ اختيار سيئ لن يعفى من عواقب وخيمة!

ـ ظننته ينقذ نفسين ضالتين . .

ـ لا ضمان لذلك . .

ثم بامتعاض كالأنين :

ـ أى حظ سيئ! لم نفق بعد من تجربة سهام المريرة ، وهأنتذا فى نفس الطريق الوعرة . .

فقال شفيق بأسى :

ـ حسبتك ستبارك قرارى . .

هام فى وادى الخيبة طويلا . وراجع نفسه وانفعالاته . ثم تنهد قائلا :

ـ سمعت رأيى ، ولكن إذا أصررت على رغبتك فلن أعارض .

ونقل شفيق صورة مما دار بينه وبين أبيه إلى زكية فى ألطف أسلوب ممكن . تابعته بانتباه وعمق . لم تكن فى مثل براءته بعد أن طحنتها الحياة من رأسها إلى قدميها . كفرت بكل شىء إلا ذاتها ، والمال . . ذلك الساحر الذى قدمت له نفسها قربانا . ولم تكن تبنى أى خيال على تخرجها القريب وقد أنضجتها الحياة أكثر من أساتذتها أنفسهم الذين يتاجرون أيضا بطريقتهم الأكاديمية الخاصة . أيغريها هذا الشاب بالزواج؟ وما قيمة الزواج منه؟ وما الداعى إلى تحمل احتقار أهله؟! ثم إنها لا تحبه كما يتصور . إنهم يصدقون أى كلام يند عن جسد المرأة . وإن لم تنكر أنه أوثق الزبائن علاقة بها وأقربهم مودة إلى نفسها . ولم ترتح لإدلاله وهو يعرض عليها الزواج ، ولا عن قوله «الإقلاع عن الحياة الفاسدة» . أين هم المحترمون؟ ولما سألها عن رأيها أجابت بوضوح :

ـ غير موافقة!

تساءل بذهول :

ـ حقًا؟!

ـ لا تغضب ، فكّر قليلا وستقتنع بأنك غير أهل للزواج!

فتساءل بإنكار:

ـ أنا؟!

فقالت باسمة:

ـ وأنا أيضا!

واختفت من حياته كوهم. وكاد يجن. وبالتحرى المحموم عرف أنها اهتدت أخيرا إلى الطريق العربى. وأنها وثبت وثبة موفقة إلى شقة مفروشة آخذة معها أمها الكادحة. طارت من قفص الحياة اليومية كما طارت أختها من قبل، وارتفعت فوق تطلعات طبقته. وكان محمد يلاحظه بقلق، ويعجب لصمته. وذات يوم سأله:

ـ ماذا فعلت يا بنى؟

فأجابه بإيجاز:

ـ اقتنعت برأيك!

لم يصدقه الرجل الخبير، ولكنه تنهد بارتياح قائلا:

ـ فليحفظنا الله بعنايته.

ـ ولكن الزواج ضرورة لأمثالى، فما العمل؟

ارتبك محمد وشعر بالقهر، ثم قال محتدا:

ـ ما أجدر أن نوجه هذا السؤال إلى وزير التخطيط أو إلى المجموعة الاقتصادية!

وبعد فترة صمت تمتم:

ـ لنضع ثقتنا بالله سبحانه..

وتخرج شفيق وابن عمته أمين على حين انتقل على وسهام وهند رشوان إلى السنة النهائية. وجند شفيق وأمين. ووجد على فرصة للسفر إلى الخارج ضمن رحلات الطلبة الموسمية. سافر ولكن أحدا لم يره بعد

ذلك. وأرسل ـ من ألمانيا ـ خطابا إلى أمه يخبرها فيه بأنه وجد عملا ـ كعامل ـ فى مصنع، وأنه لدراسته العلمية اعتُبر عاملا فنيا، وأنه ينوى إتمام دراسته عندما يتقن اللغة الألمانية، وعلى أى حال فلن يرجع إلى مصر أبدا. أعادت منيرة قراءة الخطاب بعينين دامعتين، وقالت لنفسها:

ـ عثرة جديدة تضاف إلى سوء حظى!

وبتكليف منها أبلغ محمد الخبر إلى سليمان بهجت. وسُرَّ الرجل به قائلا:

ـ أحسن صنعا!

ثم واصل ضاحكا:

ـ سأعثر عليه فى إحدى رحلاتى لأبارك خطوته..

فتساءل محمد:

ـ أما كان الأوفق به أن يصبر عاما حتى يحوز شهادته؟

ـ هرب من التجنيد، وله حق!

وتلقى البيت القديم الخبر بهدوء نسبى إذ لم تعد تهزه الأنباء السيئة. غير أن سنية قالت:

ـ لك الله يا منيرة..

فقالت كوثر:

ـ حظها أفضل من حظى!

فقالت سنية بعتاب:

ـ ابنك جدير بالإعجاب لا الرثاء.

رغم أنه لم يحقق إلا بعضا من آمالها. أجل. سُدت الثقوب، وسنفرت الأرضية، وطُليت الجدران فشعّت رونقا، ونُجدت المراتب والأغطية والمقاعد والكنب، واتفق مع بستانى على تنظيف أرض

الحديقة وغرس ياسمين ولبلاب أسفل الأسوار لتكسو الخضرة الأسياخ الصدئة، وتشذيب البقية الباقية من النخيل والبلخ. سُرّت كثيرا وسعدت ولكن أين هذه الحديقة الفقيرة من الجنة الموعودة؟! وخفف من فتورها وضاعف من امتنانها ما تطلع عليه يوما بعد يوم مما ينفق على البيت. رشاد ينفق بسخاء كأنه رب البيت تاركا المعاش لنثرياتها. كيف كانت الحياة تمضى لولا يده المبسوطة؟! وكأنما كانت تشاركه أفراحه فى سياحته اليومية بين الكتاب والراديو والتلفزيون، وسهرته الأسبوعية مع زواره وسماع ضحكته المترعة بالسرور. وها هو ذا يحلم بالزواج والكتابة وينتظر مزيدا من الضياء. وآمن رشاد بأنه حقق حلم جدته المحبوبة. وكم سره أن يجد منها استجابة قلبية لأحلامه. فهى - بخلاف أمه - تشجعه على الكتابة وتقول له:

- عرفت الحرب والسلام، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وهى الوحيدة فى الأسرة التى تتفق معه على حب زعيمى الثورة، السلف والخلف معا، وتقول:

- لكل منهما مزاياه وأياديه، أما الأخطاء فسبحان من له الكمال وحده!

وقال يوما لزوار الجمعة من أهله:

- تبدون أحيانا كأنكم فقدتم الأمل، أنا وجدتى لا نفقد الأمل أبدا..

فقالت منيرة بمرارة:

- عربدة الغلاء أنستنا النصر!

ثم تساءلت متنهدة:

- وأين على؟!

وحمل محمد على الزعيم الراحل كعادته وقال:

- كل ما نعانى من شر فمن صنع يديه..

فتساءلت منيرة:

ـ وأخطاء الانفتاح أهى من صنع يديه أيضا؟!

فقال بإيجاز:

ـ إنى راض عن الرئيس الحالى باعتباره التمهيد لدولة الإسلام!

وساءل رشاد نفسه: «متى تنفرج الأزمة؟». وعقب ذهاب الزوار زارت سنية ـ كالعادة ـ صورة القناطر التذكارية. ساق كرسيه مقتربا منها ورنا إلى الشباب المخصب للصورة وسألها مداعبا:

ـ تحنين للشباب يا جدتى؟!

فقالت بشرود:

ـ إنى أنظر وأتساءل من كان يتصور؟!

وخطرت له فكرة مشرقة، فقال:

ـ ليست الحرب هى التجربة الوحيدة فى حياتى، ولكن أيضا هذه الصورة ذات المصائر العجيبة!

فتمتمت:

ـ فكرة!

ورجعا إلى مجلسهما وآخر شعاع للشمس يتقلص مودعا حجرة المعيشة. وتذكّر إشارات خاطفة كانت تصدر عنها فى أحوال نادرة عن جدودها لم يهتم بها أحد قانعين جميعا بمعرفة جدهم صاحب البيت والأرض. غير أن رغبة جديدة فى معرفة كل ما يمكن معرفته غزته بسحر جديد، فقال لها:

ـ أود أن تحدثينى عمن عرفت من جدود يا جدتى.

فانبسط وجهها وسألته:

ـ أتريد أن تكتب عنهم أيضا؟

- إن استحقوا ذلك!

- إنهم يستحقون وزيادة!

وداری وراء ابتسامة عدم تصديقه وهو العليم بحساسيتها ونظرتها الخاصة للأمور. قال:

- إنى شديد الرغبة فى الاستماع.

تبدت مستجيبة متحمسة واندفعت تروى قصة جدودها كأنما كانت تنتظر هذا الإذن منذ دهر طويل.

قالت:

- أقدم جد سمعت عنه كان يدعى فرج، من الصعيد الجوانى، وكان قويا، رزقه يأتيه من قوته، ولكنه يقبل الهدايا ولا يغتصب، فأحبه الجيران بقدر ما هابوه، وكان هو وزوجته يؤاخيان الأرواح ويعرفان الغيب..

دهش رشاد. ودهش أكثر لما طالعه فى وجهها من الجدية. وما تمالك إلا أن ضحك قائلا:

- هذا يعنى أنه كان قاطع طريق!

فهتفت محتجة:

- لو كان كذلك ما حدثنى عنه أحد بكلمة!

- لكن هذه الأوصاف..؟!

- بهذه العقلية يا حبيبى يعتبر حكامنا الأجلاء قطاع طرق!

- تعتبرينه إذن من الحكام؟

- فى بيئته، لم لا؟!

وتظاهر بالتسليم ليشجعها على الاستمرار، فقال:

- لا يخلو رأيك من وجاهة يا جدتى..

فمضت بثقة :

ـ وبلغ المائة ولكن قدمه زلت وهو فى قمة العمر .

فاشتد انتباهه ، ولكنها بدت كأنما تريد أن تعبر فوق تلك النقطة ، فقال بتوسل :

ـ الحقيقة يا جدتى ، وإلا فما جدوى الحديث؟!

فابتسمت فى حياء وقالت بصوت خافت :

ـ يقال إنه أغرى بنتا فى الخامسة عشرة!

فكتم ضحكة كادت تفلت منه وهمس :

ـ شىء يفوق الخيال . .

ـ إنها زلة ولا شك ولكنه كان فحلا!

ـ وماذا فعل أهل البنت؟

ـ لا علم لى بذلك ، ولكنه مات بعدها بقليل بغدرة جمل عضه .

الحق إن جدته التى استوت أمام عينيه كمثال للرصانة والقوة والثقافة ، الحق إنها تملك جانبا خفيا أشبه بالأسطورة يحتار الإنسان فى تقييمه . وإذا بها تسأله :

ـ ما رأيك؟

ـ رجل عظيم حقّا ، ولكننى أخشى أن يسىء إلى سمعتنا فى نظر الناس العاديين . .

ـ ألم تصادفك أحداث مسيئة للسمعة أكثر من زلة رجل فى المائة؟!

فقهقه عاليا ثم قال :

ـ استمرى يا جدتى .

فواصلت والنشوة تورِّد وجنتيها الذابلتين :

ـ الجد التالى يدعى غزال ، الشهير بحرك ، إذ فرض عليه رزقه التنقل

المتواصل بين قرية وأخرى سعيا وراء الصيد والبيع، لم يعاشر أسرته إلا لماما، فلم ينعم بالعلاقات الحميمة، كأنه مطارد، ولذلك وهنت علاقته بالغيب والأرواح، ولم يعرف الاستقرار، ولا الرفاهية، وشغل مسيرته بالغناء متشكيا من الزمان، حتى عثر على جثته ذات يوم ملقاة فى مصرف، ولم يستدل على قاتله فقيل إنه إنسان، وقيل إنه حيوان، وقيل إنه عفريت. .

ووهبت دقيقة صمت للرثاء الذى تجلى فى عينيها، ثم قالت:

ـ من شدة حزنى عرفت سر مصرعه. .

فتساءل رشاد:

ـ كيف يا جدتى؟

ـ بالحلم المضىء، رأيت بدويا قاطع طريق وهو يخنقه ليسلبه ماله، ثم جاء ذئب فنهش بطنه، وشهد الواقعة من أولها عفريت ساحر هو الذى رمى به فى المصرف!

وتبادلا نظرة طويلة، حتى سألته:

ـ ما رأيك؟

فتساءل بارتباك:

ـ أيستحق غزال أن يؤرخ له أيضا؟

فقالت بجدية أدهشته:

ـ كيف لا؟ وهل قدر لمصرى أن يلى مكانة أسمى من مكانته فى زمنه؟ عاش مكافحا ومات شهيدا!

فقال مجاملا:

ـ كلامك كله حكمة يا جدتى. .

فقالت بعتاب:

ـ حذار من السخرية، إنى أنضج عقل فى هذه الأسرة المبعثرة بين النزوات وسوء الحظ!

ـ ثقى بجديتى واستمرى . .

فقالت باسمة:

ـ ثم جاء فرج، فرج الثانى المتسمى باسم جده، نهض لحمل الأعباء بعد مصرع أبيه، فعدل عن حياة التجوال عملا بنصيحة أمه، فاختار عملا بين بين، يقوم على الحركة، ولكن فى القرية والسوق، يسرح بالأغنام ويبيع اللبن، فنعم بحياة مستقرة عادية وعشق الله والنساء، وقرر ذات يوم أن يفجر قنبلة فى بيئته العائلية الساكنة . .

ـ قنبلة؟!

ـ أشهر إسلامه وتسمى باسم محمد المهدى!

فتساءل رشاد:

ـ كيف دخل جدنا الإسلام؟

ـ أعلن أن النبى عليه الصلاة والسلام زاره فى المنام وعرض عليه الإسلام فقبله دون تردد، أما أهله فأكدوا أنه عشق فلاحة مسلمة!

ـ ورأيك أنت يا جدتى؟

ـ سيرته بعد ذلك شهدت له بالصدق، وقد نذر بكريه للأزهر، وهو الشيخ عبد الله المهدى أبى وجدك!

ـ هذا جدنا المعروف . .

ـ لعل الوحيدة التى تذكره هى كوثر أمك، وقد عمل أول حياته مدرسا، وكان أيضا يرتل القرآن بصوت عذب، ثم اشترى أرضا وتفرغ لزراعتها فعُرف بمهارته كما عُرف بورعه، ولما اجتاحه الروماتيزم انتقل إلى حلوان وشيد هذا البيت وكان قطعة من الجنة . . !

تأثر رشاد بأريحية جدته ونشوتها أكثر مما تأثر بسير الجدود أنفسهم. ولم تكن تبلورت لديه فكرة عن نوعية الكتابة التى سيختارها ولا عن ضرورة - أو عدم ضرورة - اشتراك الأجداد فيها. غير أن نشوة جدته أضفت على الرجال الغابرين سحرا خاصا نفخ فيهم ضياء فى مواقعهم الموغلة فى الزمان فأجّل قراره إلى حينه. وفكّر من جديد فى بعث الحديقة وتحقيق حلم جدته الملح.

وقال لأمه:

- ليتنى فكّرت فى شراء هذا البيت قبل الانفتاح..

فقرأت كوثر أفكاره وقالت:

- ما فات فات، تذكر ما سبق أن قلته.. ولا تنس الغلاء الذى لا يريد أن يقف عند حد.. ويحسن بك أن تفكر فى شىء واحد هو الزواج..

- تمنيت لو أتزوج هنا ولو نظير أجر أدفعه للمستحقين..

فقالت كوثر باهتمام:

- عندى فكرة أحسن، أن تبيع الأرض، وتكتفى بالعمارة، وبثمن الأرض تشترى شقة فى إحدى عمارات التمليك التى تقام فى حلوان وتواجه أيضا تكاليف الزواج..

- ونترك جدتى وحدها؟

فبادرته:

- إنى باقية معها لآخر العمر، المهم متى تشرع فى الزواج؟

فضحك قائلا:

- أرينى همتك!

فهتفت متهللة:

ـ وكلف بذلك أيضا جميع أصدقائك . .

وتخرجت سهام وهند رشوان فى عام واحد ، أما هند فانتظرت خطاب التعيين الذى لن يصل قبل عام ، وأما سهام فقررت تقديم رسالة ماجستير طامحة إلى وظيفة معيدة اعتمادا على تفوقها البين . وأنهى شفيق وأمين مدة التجنيد فألحق الأول مهندسا بشركة الملاحة ، والثانى مهندسا بشركة الصناعات الكيمياوية . وهمست ألفت فى أذن سهام بأن محاميا فى قضايا الحكومة يسعى لخطبتها فارتعدت وقالت :

ـ لن أفكر فى ذلك حتى أحصل على الماجستير .

فاعترضت ألفت قائلة :

ـ ولكن . .

غير أنها قاطعتها قائلة :

ـ لى أمل كبير فى بعثة إلى إنجلترا .

ـ والعمر ؟ !

ـ لا أهمية لذلك !

وعلم محمد برأيها ، فقال لها بحدة :

ـ إنك غير محتملة .

فقالت ملاينة :

ـ لى خطة يا بابا .

فصاح :

ـ خطة كالقطران !

واشتد غضبه فقال لها :

ـ لم يؤذنى أحد فى حياتى ـ باستثناء عبد الناصر ـ مثلما آذيتنى !

وحلمت سهام بالبعثة كملاذ أخير ، تلوذ به بمبدئها وجرمها الخفى ،

وهما إرثها عن حبيبها الذى تلاشى فى غمضة عين. وجو أسرتها كان ينذرها دائما بالتهديد والخوف حتى تمنت هجره وشارفت مقته. وخُيِّل إليها أن أباها وشفيق أيضا يرمقانها بعين الريبة. وإن يكن فى ذلك شك فمما لا شك فيه أنهما لا يباركان موقفها من الحياة. وكل يوم فهما يزدادان إسلاما فيزدادان خطرا وتزداد هى غربة. وأمها لا أمل فيها، فهى محبة لأبيها لدرجة العبادة ومؤمنة ببطولته، وهى فى الوقت نفسه ـ على رقتها ـ غير موافقة أيضا على موقفها. فكيف إذا انكشف سرها وأعلنت خسائرها! وجمعت المشكلات بين شفيق وابن عمته أمين.

سأله شفيق:

ـ ما قيمة المرتب؟

فأجاب أمين ببساطة:

ـ لا شىء.

ـ ويهمنى جدًّا أن أتزوج.

ـ أنا عندى خطيبتى ولا أدرى كيف أتزوج!

ـ بنات الهوى ارتفعت أسهمهن فى بورصة العرب لدرجة خيالية..

ـ نحن محاصرون من جميع الجهات..

ـ وقد تيأس خطيبتك فترحب بأى قادر.

فقال أمين بثقة:

ـ ليست من هذا النوع..

ـ لو أنى مكانك لكتبت كتابى لأروح عن نفسى تاركا المستقبل للمستقبل!

وحليت الفكرة لأمين، ولكنه راح يقلّبها على شتى جوانبها قبل أن يندفع إليها كالمجنون. ووجد بابا لم يطرقه فقرر أن يطرقه. وقرر أن يطرقه سرا فأخفى عزمه حتى عن أمه المحبوبة. ذهب إلى فيللا المعادى

لمقابلة أبيه سليمان بهجت. إنه يزوره من حين لآخر زيارات بريئة، وفى كل مرة يخيل إليه أن الفيللا تزداد تألقا وترفا. وكالعادة لقيه أبوه برقة معهودة، وسأله عن مامته وجدته وسائر أفراد الأسرة. وحضرت زاهية المقابلة فهى لا تترك الابن يخلو إلى أبيه أبدا. ولم يجد أمين بدّاً من عرض قضيته على مسمع منها. قال:

- إنى خاطب كما تعلم يا بابا وأريد أن أتزوج..

لم ينظر نحو زاهية، ولكنه شعر بأنها ماجت بالانفعالات. وتساءل الأب ببلاهة:

- وماذا يمنعك؟

فضحك محرجا وقال:

- أنت أدرى يا بابا.

هزّ الرجل رأسه وقال:

- طالما أفهمت الجميع أننى لا أملك إلا جدران هذه الفيللا!

فتساءل برجاء:

- ولو على سبيل القرض؟

فقال سليمان بهجت بأسى:

- ليس لدى إلا الحزن والأسف.

وتدخلت زاهية فى الحديث قائلة:

- يا باشمهندس، أنتم أغنياء ولست فى حاجة إلى قرض.

فتحول إليها كارها ومتسائلا:

- أفندم؟

- هل لديك فكرة عن ثمن بيتكم القديم بحلوان؟

لم ينبس فقالت:

ـ ألف شركة أجنبية مستعدة أن تشتريه بمليون، سامعنى؟!

ثم وهى تضحك:

ـ أرأيت أنكم من أصحاب الملايين؟! أنا مستعدة أن أبيعه لكم فى يوم!

وغادر أمين فيللا المعادى خائب المسعى، ولكن الملايين تتطاير من خياله معيدة خلق الدنيا من جديد. أجل. إن البيت ملك جدته، وهى نفسها تعيش بمعاش لا جدوى منه فى هذا الزمن. البيع يغنيها ويغنى أولادها وأحفادها. وحتى متى ينتظر أبناؤها؟! كوثر ومحمد ومنيرة يدنون من الستين ويعانون حياة متقشفة. جدته فى الثمانين، وهو يحبها، أو لا يكرهها، وصحتها أحسن من صحة كوثر ومنيرة أمه، وثمة حل متاح يعد الجميع بالسعادة. وهو خير على أى حال من رصد موتها باعتباره مفتاح الفرج للجميع. وبشّر بفكرته لدى أمه وخاله محمد وابن خاله شفيق وبنت خاله سهام. قال:

ـ وتتنزل لكل مستحق عن حقه فتعفى التركة من الضرائب ويبقى لها ما يجعلها من الأغنياء إلى آخر العمر.

وطابت الفكرة لمن يغالبون وحش الغلاء. وقد خطرت لمنيرة كما خطرت لمحمد من قبل، ولكنهما أشفقا من إعلانها رحمة بأمهما، عاشقة البيت، والحالمة أبدا بإعادة الشباب إليه. وما الضرورة فى تكدير صفو امرأة محبوبة فى الثمانين من عمرها؟! ولكنهما غلبا على أمرهما إزاء حماس الأبناء المرهقين بالأزمة، وقال محمد:

ـ ليكن فى علمكم بأننا ـ أنا ومنيرة ـ لن نكون البادئين بفتح الموضوع.

ولم تحمل سهام للمشكلة كلها همّا، وقالت لنفسها:

ـ فليأكل بعضهم بعضا!

وانضم أمين وشفيق إلى لقاء الجمعة التالى فأحدث حضورهما دهشة، وقالت سنية:

ـ حسن أن تتذكرا بين الحين والحين أن لكما جدة!

فانقبض قلبا محمد ومنيرة على حين تربص شفيق وأمين بالفرصة المناسبة. وجرى الحديث بعيدا عن النيات المضمرة، آخذا فى مجراه زواج رشاد فى المقدمة، ثم كالعادة احتلت السياسة مكانها الدائم المرموق. قال رشاد:

ـ النصر لم يبشر حتى الآن بسلام دائم.

فقالت منيرة بلا تركيز حقيقى:

ـ بل ثمة إشارات فى الصحف إلى احتمال حرب خامسة!

فقالت كوثر بمرارة:

ـ كأنها مباريات الكرة الدورية..

مضى الحديث فى درجة حرارة منخفضة على غير عادة والضمائر مضطرمة بالمهمة الثقيلة التى جاءوا من أجلها. وساد صمت غير طبيعى. وتبادل أمين وشفيق نظرة متضمنة دعوة بالتقدم. واخترق أمين جدار الحرج فقال لجدته:

ـ معنا كلام يستحق أن يسمع!

فرمقته بنظرة بريئة باسمة، فقال:

ـ تعلمين طبعا بمتاعب الناس فى هذه الأيام، خاصة الشباب الذين يبحثون لأنفسهم عن مستقر..

فقالت سنية بحنان:

ـ قلبى معكم والله لن ينسى عبده!

فقال شفيق:

ـ ولكن يوجد حل يا جدتى .

ـ يسرنى أن أسمع ذلك .

ـ الحل بيديك أنت !

فدهشت سنية وتساءلت فى حيرة :

ـ أنا ؟ !

فقال أمين :

ـ إنك تملكين مليونا من الجنيهات !

قلّبت المرأة عينيها فى الوجوه ضاحكة ، وقالت :

ـ مليون ! ما أملك إلا معاش جدكم الذى تتناقص قيمته كل طلعة شمس . .

فقال شفيق :

ـ هذا البيت القديم يساوى اليوم مليونا بالكمال والتمام . .

تراجع جذعها حتى التصق بمسند الكنبة ذات الغطاء الأخضر كأنما تلقت ضربة ، وتمتمت بصوت مبحوح :

ـ البيت القديم !

وراحت كالمستغيثة تنقل بصرها من رشاد إلى محمد إلى منيرة ، ثم تساءلت بحدة :

ـ فيم تفكرون ؟ !

شعر محمد بأنه ينبغى أن يشترك فى الحديث ليصد عنه أى مضاعفات ، فقال برقة :

ـ ماما ، معذرة ، إنهم متأزمون ، ويروحون عن أنفسهم بالشكوى . .

فقالت بوجه متجهم :

ـ إنى متألمة .

فقال بنبرة ملاطفة :

ـ معاذ الله ، امنحينا بعض الصبر ، لا بأس من شرح الفكرة ، وأنت فى النهاية صاحبة الحق المطلق فى القبول أو الرفض ، علم الله أننى كاره للحديث ، ولكن هل يجوز أن نتجاهل أنات أبنائنا؟!

فقالت سنية بامتعاض شديد :

ـ سأصغى إليك وأنا كارهة!

فقال مستعينا بمهارته المهنية :

ـ عم تمخض تفكير الأولاد؟ يقولون إن الشركات الأجنبية تشترى الأراضى بأسعار خيالية ، ويؤمنون بأنه يمكن أن نبيع بيتنا بمليون ، لا عليك بعد ذلك أن تشترى شقة أو فيللا صغيرة مناسبة وأن تستثمرى بقية المال فى مشروعات تدر أرباحا محترمة ، فى الوقت نفسه تمدين الأحفاد بما يمكنهم من تأسيس حياتهم وتحقيق آمالهم ، خاصة وأن معاشك لا خير فيه وانتفاعك بالبيت قاصر على الإقامة المجانية ، هذه هى الفكرة ، وهى تستحق المناقشة ، ولن يحملك أحد على قرار تأبينه . .

اشتد التأثر بسنية لحد أنها لم تستوعب حديث محمد ، غاية ما أدركته أنهم ائتمروا معا للانقضاض على البيت الذى لا تتصور للحياة معنى خارج جدرانه . قالت :

ـ ضقتم بحياتى والله لا يحب ذلك!

فهتفت منيرة :

ـ ماما ، كيف هان عليك أن تقولى ذلك؟ نحن نحبك أكثر مما نحب أنفسنا . .

ـ عندما رأيتكم داخلين ملكنى شعور غريب . .

فضحك محمد مداريا مرارته ، وقال :

ـ لا . . اطردى هذا الشعور من فضلك . .

ـ وهذا تأويل حلم رأيته الليلة الماضية!

ـ تأويله خير ولا يمكن أن يكون إلا خيرا!

فقالت بحزم :

ـ إذن فلنغير الحديث . .

ولكن أمين تساءل :

ـ ألا يحزنك ألمنا يا جدتى؟

فقالت بانفعال :

ـ كيف لا ، إنكم تعيشون فى خواطرى وأحلامى وإن تجاهلتم وجودى لا فرق بين من يقيم منكم فى القاهرة أو فى ألمانيا .

ـ إنك جدتنا المحبوبة فى جميع الأحوال .

فلم تستجب لقوله وقالت :

ـ توجد فرص كثيرة فيما نقرأ ونسمع . .

فقال لها شفيق :

ـ أعطنا مثلا .

ـ البلاد العربية ، أيضا ممكن أن يبدأ أمين حياة الزوجية فى شقة العباسية . .

فقال أمين :

ـ أى زوجين يودان الاستقلال بمسكن . .

وقال شفيق :

ـ والبلاد العربية ليست تحت طلب الطالب . .

فقالت بحرارة :

ـ فكروا ، ولكن بعيدا عن هذا البيت . .

فقال أمين :

ـ يبدو أنك لم تفهمى الموضوع يا جدتى .

فقالت بعناد :

ـ لا حاجة بى إلى ذلك ، ولن يمس البيت وأنا حية !

ونظرت فيما أمامها وقالت بتعاسة لا تحل بها إلا فى الملمات :

ـ لم يبق من العمر إلا قليل ، اتركونى فى سلام حتى يستردنى الله الرحيم . .

فقالت منيرة بعصبية :

ـ ولا كلمة أخرى فى الموضوع ومعذرة يا ماما . .

ولما غادروا البيت أسبلت المرأة جفنيها فى إعياء وغمغمت لنفسها :

ـ الله يرحمه ويغفر له !

ودون دافع واضح قررت أن تمضى صباح الغد فى الحديقة اليابانية قبل أن ينطوى الخريف ويهل الشتاء . لم تعد فى نشاطها الأول ، وكثير من الذكريات تتلاشى ، وكثير من الأحلام تتراءى ولا تخلو من كوابيس . ثم إنها تغيب كامرأة وتتجسد فى صورة ورقة مالية يحوم حولها الجشع . ومضت على مهل ، حتى وقفت أمام الصورة التذكارية وهمست :

ـ أنت الدليل الحى على أن السعادة حقيقة لا خيال .

وقالت كوثر لرشاد :

ـ اشرع فى بيع الأرض وحسبك ما رأيت وسمعت . .

فهزّ رأسه موافقا وقال :

ـ لكنى لن أضنّ على الحديقة ببعض المال . .

ـ لا أدرى معنى لذلك . .

فقال برقة :

ـ جدتى تحبنى أكثر من الجميع وعلىّ أن أبادلها حبا بحب . .

أما الراجعون إلى القاهرة فقد جمعهم الديزل وهم فى غاية من الانفعالات المتضاربة، قال أمين :

ـ ما كنت أتصور أنها تملك هذه الطاقة الكبيرة من العناد!

فقال شفيق :

ـ لا تريد أن تفهم ولا أن تتفاهم . .

ـ لا أريد أن أعمر حتى أبلغ تلك الحال . .

فقالت منيرة بحدة :

ـ تذكرا أنكما تتحدثان عن أمنا!

واختلطت الهموم الشخصية بالهموم العامة، وآمن كثيرون بأنها همّ واحد ذو أسماء متعددة، ألا يكون الحل فى السلام، فى الديمقراطية، فى الشريعة الإسلامية؟! المهم ألا يكون حلا سبق أن جرب وأسهم فى تجميع الثمار المرة الراهنة. ليكن السلام ولكن ما باله يتدلل ويتعذر؟ ولكن الديمقراطية، ها هى ذى الأفكار تتحاور وتتصارع، وتتطور من منابر إلى أحزاب صريحة، بل ها هو ذا الوفد يتعملق كمارد حطم قمقمه، وتهتز الأرض وتنشق عن قرارات انضباط تعيد المارد إلى قمقمه، ولكن الأحزاب الأخرى تتكون وحتى اليسار يكرس له حزب شرعى لأول مرة. وينادى كل حزب بتطبيق الشريعة الإسلامية ويشترك اليسار فى النداء، ويشعر محمد بأنه لم يكن فى يوم من الأيام أقرب إلى هدفه مما هو اليوم. ومع ذلك قال بأسى :

ـ حتى الشيوعيون لهم حزب، أما نحن فلا حزب لنا!

وارتفعت الأصوات المعارضة، ولكن الأسعار ارتفعت أكثر وامتلأت الأسواق بالسلع المستوردة، استهلاكية وكمالية، وتحدّث

المرهقون عن طبقة جديدة من أصحاب الملايين، كالوباء، يعرف بآثاره وعواقبه ولا ترى مكروباته بالعين المجردة. وإذا بالسماء تمطر دهشة أنست كل ذى هم همه. دهشة أسطورية لم يتصورها خيال من قبل. دهشة تتميز بخواص الخوارق وسجايا المعجزات ونشوة الأساطير. عندما عُرف وأُعلن أن أنور السادات سيهبط فى أرض إسرائيل! وتجمع كثيرون من سكان الأرض أمام التلفزيون ليشاهدوا بأعينهم كيف تتحدى الإرادة البشرية مجرى التاريخ لتحوله عن مساره الحتمى عنوة وبلا سلاح. وتجلى اللقاء بين أعداء الأمس، تصافحت الأيدى، تبودلت الضحكات، والخطب، والصلوات، وتدفق ماء عذب من شقوق صخر صلد لتصب فى مجرى ملىء بالحصى. واستأثرت الزيارة العجيبة بحديث الجمعة فى البيت القديم.

قال عنها رشاد:

- كأنها غزو القمر.

وتجلى الفتور فى وجهى محمد ومنيرة، أخيرا وجدا ما يتفقان فيه. قال محمد:

- هذه هى الثغرة التى لا انسداد لها..

وقالت منيرة:

- إنه استسلام لا سلام..

فتساءلت كوثر ببرود:

- أتريدون حربا بلا نهاية؟!

وبدت سنية مطمئنة وسعيدة وإن خفق قلبها طيلة الوقت حبا وعطفا على رشاد. ونظرت صوب محمد وسألته:

- ما رأى شفيق؟

- إنه مسلم مثلى تماما.

ـ إنى مسلمة قبلك بربع قرن، وماذا عن سهام؟

فقال بسخرية:

ـ متفقة معنا لأول مرة!

ـ وألفت؟

ـ أظنها مثلك يا ماما!

فالتفتت نحو منيرة قائلة:

ـ وأمين على رأيك؟ طبعا، أخيرا اتفقوا!

ورجعت بعينيها إلى محمد وقالت:

ـ إنك رجل تغوص بين الناس، أصدقنى بربك ما رأيهم؟

فمطّ بوزه ممتعضا وقال:

ـ الشعب مع السلام بلا عقل!

فقالت سنية:

ـ رأيت استقبالهم للرئيس عند عودته فلم أدهش يا بنى، كان الاستقبال مبايعة لشخصه من جديد ومباركة لخطوته، هم الذين يموتون عند الحرب ويجوعون عند اللاسلم واللاحرب، ورأيهم رأى الفطرة السليمة بعيدا عن شرك المذاهب..

فقال محمد بصلابة:

ـ الجهاد لا يعتل بالعلل، والحق كالشمس..

ـ كل شىء مشروع فى سبيل الدفاع عن النفس!

فقالت منيرة:

ـ يبدو يا ماما أننا خسرنا العرب..

فقال محمد:

ـ دمغونا بالخيانة ولهم حق.

فسألته باهتمام:

ـ ماذا يقول الناس عن ذلك؟

ـ إنهم حانقون على العرب، نسوا التاريخ قديمه وحديثه، ومهما قيل عن أخطائهم فأياديهم لا يمكن أن تنسى..

فقالت سنية:

ـ أوافقك على ذلك، ولكن الصواب يتوارى عند احتدام الخصام!

ـ بدأ أناس يقولون ما لنا وللعرب، لسنا عربا، هكذا تبدأ فترة مأساوية فى تاريخنا الحافل بالمآسى..

فقالت بهدوء:

ـ الصواب يتوارى عند احتدام الخصام، ولكنه لا يفنى أبدا..

فقالت منيرة بازدراء:

ـ ليس أمامه اختيار: فإما يدورَ فى فلك الولايات المتحدة، وإما الموت جوعا!

ولكن العجوز كانت متفائلة. بل عادت تحلم بتجديد شباب البيت والحديقة، والمدفن أيضا.

وفى ذلك الوقت عهد رشاد إلى خاله محمد بمهمة بيع الأرض وشراء شقة له فى حلوان فقام بالمهمة على خير وجه، واشترى له شقة جديدة فى عمارة للتمليك فى شارع الأمين غير بعيد من شارع ابن حوقل. أما مهمة البحث عن زوجة فقد تعثرت رغم كثرة الباحثين. ولدى كل فشل كانت كوثر تثور غاضبة وتقول:

ـ لولاه ما كان نصر ولا سلام!

وأخيرا أحرزت منيرة أول توفيق مع مدرسة فى دائرتها التعليمية. كانت أرملة لمدرس فى الثلاثين من عمرها ـ تكبر رشاد بعامين ـ وأم لغلام فى العاشرة، تدعى سميحة، وقد شرطت أن يقيم ابنها معها.

واستمعت كوثر للمواصفات والشروط بفتور، ولكنها سرعان ما غيّرت رأيها عندما زارت سميحة فى عين شمس ببيت والدها، فأقرت لها بالوسامة وقوة الخلق. ودعيت للغداء مع منيرة فى البيت القديم ـ نظرا لظروف رشاد ـ فتم التعارف، والارتياح من جانب رشاد، فقال عقب انصرافها:

ـ نعمة من الله . .

وتنبأت له جدته بالتوفيق والذرية. ونشطت كوثر وسميحة مع معونة محمد لتجهيز الشقة الجديدة وكان من المتفق عليه أن يقوم رشاد بالأعباء المالية. وفى نفس الوقت اتفق رشاد ـ بوساطة محمد أيضا ـ مع مقاول حدائق، لزراعة الحديقة بشجيرات الورد والأزهار كالفل والقرنفل والنرجس والحناء والنسرين وأشجار النخيل والكافور والسرو والحور والأكاسيا. واستعادت روح العجوز مرحها فشعشع رأسها بالآمال وقالت:

ـ ما دام أمكن هذا فكل شىء ممكن . .

وتم زواج رشاد فى وقار وهدوء يناسبان حاله. وتذكرت سهام طريقها الأول فغشيتها كآبة عابرة وضاعفت من ساعات عملها بعزيمة ثابتة. العمل وحده يضمد جراحها ويفتح لها الأبواب. ولم تيأس من الرسو فى مرفأ آمن ما دامت تهيمن على صياغة مستقبلها. كانت وما زالت مطمئنة إلى جمالها الفريد ولو أن الجمال لا يعفى من عثرات الحظ ـ وهل ينسى مثل عمتها منيرة ـ وكان ينتابها حنين إلى الحب والجنس أيضا، وتسرها مداعبات المعجبين وما أكثرهم، فتقول لنفسها أحيانا:

ـ فى مكان ما يوجد رجل مناسب واسع الإدراك . .

والتحمت رويدا رويدا بشبان وشابات ينتمون إلى رؤيتها السياسية فأترعت حياتها بالأنس والخطر معا، وقالت لنفسها:

ـ لكلٍّ كأس عليه أن يشربها حتى الثمالة!

ولما يئس أمين من جدته كما يئس أبوه من قبل قرر أن يكتب كتابه. وحظيت الفكرة بارتياح أهل خطيبته فضلا عن هند رشوان نفسها. بذلك وجد الفرص للترويح عن أعصابه وخف ضغط الحياة عليه. وكان ـ وابن خاله شفيق ـ يتابعان الإعلانات عن الوظائف المطلوبة فى البلاد العربية. وسأل ابن خاله:

ـ ألا يعرقل موقف العرب الأخير مساعينا؟

فقال الآخر:

ـ علينا أن نجرب..

وفعلت هند رشوان مثلهما فى متابعة الإعلانات، فقالت منيرة لأمين:

ـ ممكن أخلى لك غرفة فى شقتنا تجهز للنوم.

فتساءل:

ـ والمهر؟

فلم تحر جوابا، فقال:

ـ المهندس على أى حال مطلوب وسنعثر على حل بطريقة ما فى الخارج أو فى إحدى شركات الانفتاح..

وظن محمد أنه وجد حلا لمشكلة شفيق حينما علم بأن لأحد تجار الحديد ـ وهو زميل له فى الإخوانية ـ ابنة فى سن الزواج. وقال لشفيق:

ـ سيتكفل أبوها بكل شىء، حتى المسكن، قانعا منا بشىء رمزى.

فرحب شفيق ترحيب المستغيث، ولكن أفراحه انطفأت لدى رؤيتها، فهى لم تكن عاطلة من الجمال فقط، ولكنها كانت أيضا صورة طبق الأصل من أبيها فتراجع وهو يقول لنفسه:

ـ كأنما أتزوج من الرجل نفسه!

وتضايق أبوه وقال له :

ـ مال وأخلاق ودين ، كن من أهل الباطن !

فأشار شفيق إلى أمه ألفت ، وقال ضاحكا :

ـ بل أكون مثلك من أهل الظاهر والباطن معا !

فتنهد محمد قائلا فى غيظ :

ـ احتار دليلى . .

وكان يتسكع فى ميدان طلعت حرب عندما دهمه منظر مثير . رأى صديقته القديمة زكية محمدين خارجة من أحد الحوانيت ، ماضية نحو سيارة شيفروليه زرقاء منتظرة . تراءيا فتوقفا عن الحركة وتهلل وجهاهما بابتسامة ، ثم تصافحا . دعته إلى الركوب إلى جانبها وانطلقت بالسيارة . لم تعد الطالبة المنحرفة ، ولكن أصبحت امرأة تخطر فى هالة ذات مغزى دسم . غانية تبرق بالجاه المستورد . لعل عريكتها قد لانت عقب انقطاع السيل العربى . وغلى ماء الشباب المحبوس فى عروقه فتبخرت التقوى ولو إلى حين . قالت وهى تتجه نحو المنيل :

ـ لم تزرنى فى شقتى الجديدة!

وكشخص يقيم فى جلبة محطة باب اللوق سحره الهدوء الوافد مع نسائم النيل ، كما فتنته الديكورات والمرايا والتحف . وبلغت دهشته غايتها عندما رأى أم زكية ـ وقد رآها قديما وهى تسرح بالفاكهة الفاسدة ـ مقبلة لتحيته فى روب مزركش وخمار أرجوانى وشبشب مستورد ، بيدها مسبحة من الكهرمان ، وطيلة الوقت عانى من القلق كما عانى من الشهوة المضرمة . سلم بالهزيمة فى اللقاء الأول إذ كانت المقاومة فوق طاقته . لم يلمس كأس الكونياك ، هذا ما استطاعه . ولما انقصفت مخالب الوحش الناشبة فى صدره حل فى ثقوبها الانقباض كالصديد .

وسألته ضاحكة :

ـ أتذكر مشروعك القديم؟

فأجاب بذهول بدافع الحرج :

ـ طبعا .

ولم تعلق بحرف . ترى أتريد زوجا حقّا؟ ولأى غرض؟ وفى الحال تذكر سليمان بهجت ـ زوج عمته السابق ـ وزاهية ، وما يتردد على الألسنة . وغادر الشقة بقلب ثقيل وهو يرجو ألا يضطر إلى العودة إليها مرة أخرى .

وكمثل حظوظهم تعثرت مفاوضات السلام حتى أوشك أن يقنط أنصارها ويشمت أعداؤها ، ثم ولدت ولادة عسيرة فى كامب ديفيد ، فانبسطت بحيرات الرضا كما انفجرت براكين الغضب . وكالعادة اجتمعت الأسرة فى حلوان عدا الأحفاد منضما إليهم رشاد الذى انتقل إلى شقته الجديدة بشارع الأمين . وكان المطر يجىء قليلا ويذهب قليلا ولا ينقطع ، والسماء ملبدة بالغيوم تضفى على الضاحية جوا كالمغيب الدائم . وكان العمل قد بدأ فى الحديقة ، ولكنه لم يتواصل كالمتوقع بسبب غياب العمال المتكرر ، أما فى ذلك اليوم فقد توقف بسبب المطر . نظر محمد إلى أرض الحديقة التى تبدت كهدف متخلف عن غارة جوية وقال :

ـ ستكون أجمل حديقة فى حلوان .

فقالت سنية بجزع :

ـ إنى أعد الساعات والدقائق ، ولكنى أدعو لرشاد من صميم قلبى . .

فقالت كوثر :

ـ ها هو ذا السلام فمتى الرخاء؟!

فقال محمد متهكما :

ـ ما هو إلا كارثة، ولا نجاة إلا بالإسلام!

فابتسمت سنية قائلة:

ـ دائما تنذروننا بالكوارث ولكن الله يخيب الظنون.. وجعجع الرعد فارتجفت كوثر، وقالت منيرة:

ـ أخشى أن يتعذر علينا الرجوع.

وجعلت سنية تسترق إليهم النظرات فتمتلئ بالشجن. هزلوا وشاخوا قبل الأوان، حتى محمد على رغم الإصرار المحفور فى صفحة وجهه الذى يذكرها بحامد برهان. ماذا جرى لهم؟ لم ينعم أحد منهم بفرحة صافية قط. ولا أحد من أبنائهم. شفيق، سهام، أمين، على، الجميع سواء. الوحيد الذى عرف نفسه مستقرا هو رشاد ولكن بأى تضحية فادحة؟! والبيت هل يتجدد حقّا؟ وهذه الأرض المطينة متى تستوى حديقة غناء؟ إنها فى خيالها فردوس، وأما فى الواقع فأرض تخددها الحفر، وتحدق بها أكوام الطين، متى تنبسط؟ متى تجىء المشاتل؟ متى ينقطع المطر؟ متى يواظب العمال؟ وعقب تناول الغداء انهل المطر أكثر وأرعدت السماء وهبطت السحب المعتمة فى تموجات عنيفة. قال محمد:

ـ علينا أن نذهب حال توقف المطر.

فقالت سنية:

ـ ما أجمل أن تبيتوا ليلتكم عندنا!

فسألها محمد مداعبا:

ـ ما آخر أخبار أحلامك؟

فقالت بفتور:

ـ إنى أحلم الآن وأنا يقظانة!

فقالت منيرة ضاحكة:

ـ كرامة جديدة يا ماما!

وحست سنية آخر رشفة فى فنجان القهوة ثم نادت أم سيد وأعطتها الفنجان قائلة:

ـ اقرئى هذا وأسمعينى ما يقول.

فتساءل محمد ضاحكا:

ـ أما زالت تصدقينها يا ماما؟

ـ إنها مثل أجهزة الإعلام ولكن لا غنى عنها!

وقرّبت المرأة الفنجان من عينيها الذابلتين، وتفحصته مليا، ثم قالت بنفس الثقة التى تتحدث بها منذ نيف ونصف قرن:

ـ أمامك سكة ليست بالقصيرة، فيها عقبات، ولكن انظرى (مقربة الفنجان من سنية).. هناك تنتظرك السلامة..

وهزم الرعد فكاد الفنجان يسقط من يد العجوز، ولكن محمد ضحك سائلا:

ـ ومتى يا أم سيد تزول العقبات؟

وكانت سنية المهدى تصعد بصرها وتصوبه ما بين السماء والحديقة فتطوعت بالإجابة قائلة:

ـ عندما يتوقف الرعد!

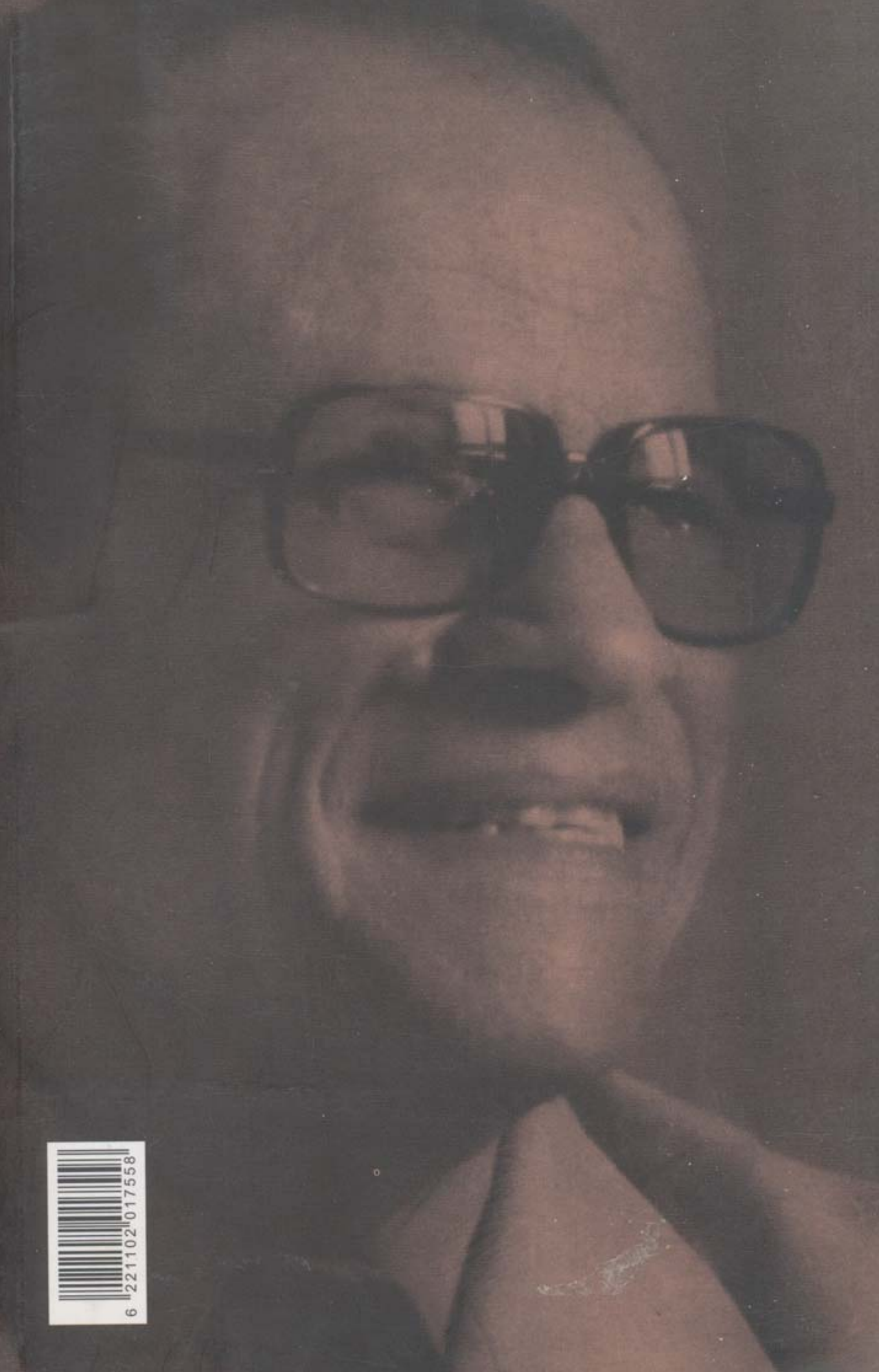
أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ -	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ -	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ -	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايــــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايــــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايــــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايــــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايــــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايــــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشــــــتمر	روايــــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ١٠٠١٥/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى x - 1584 - 09 - 977


6 221102 017558